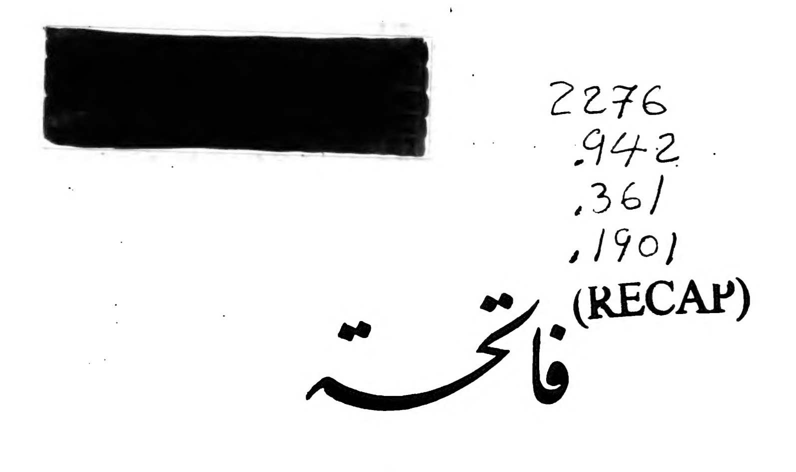

Princeton University Library
32101 077797205



فاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله » .
« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » . « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » .
وصلّ اللهم وسلم على سيدنا محمد الذى اجتبيته من بين خلقك لان يكون مستودعاً لاسرارك وناشراً لتعاليمك وواسطة بينك وبين عبادك

يهديهم بنورك الاقدس الى سعادتهم الدنيوية والاخروية . ربنا اسبغ عليه سحائب تكريمك وتشريفك و بلغه المقام المحمود الذي وعدته به وألهمنا السير على هديه وهدى اصحابه وهبنا اللهم نوراً نفهم به ما أوحيت اليه من محكم كلامك وجليل خطابك حتى نستوجب رضاءك و نستحق نعماءك . واهد اللهم مثل هذه الصلاة والسلام على آله واصحابه وتابعيه الى يوم الدين انك سميع الدعاء واسع العطاء آمين

﴿أما بعد﴾ فانه لا يخفى على كل شرقى الآن أن العلاقة بين الشرق والغرب قد وصلت خصوصاً فى الجزء الاخير من هذا القرن الى درجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ وان مصالح الطرفين قد اشتبكت تبعاً لذلك اشتباكاً يوجب أن يتعارف الفريقان تعارفاً يمحو ما سبق من التناكر الذي كانت نتائجه دائماً اضطرام نيران الشقاق بينهما مما يدعو الى التقاطع المنافى لمطالب المدنيـــة المستقبلة . نعم ان الاتصال بين الشرق والغرب أصبح عظيماً وسيأخذ فى التزايد يوماً بعد يوم حتى تصير بلاد المشرق كلها عبارة عن معرض عام تعرض فيه أنواع البضائع والصناعات ويحضره الناس من كافة الملل واللغات . ونحن هنا لا نريد ان نبحث فيما اذا كان فى هذا الامتزاج الشديد مضرة لاحد الطرفين أو فيما اذا كان مفيداً لكليهما ، بل ذلك مما لا دخل فيه لكتابنا هذا . ولكننا نريد فقط أن نقوم بعمل مخصوص لا مناص منه على كل حال .

ما هو ذلك العمل وما وجه كونه ضرورياً لا مناص منه ؟ ذلك

العمل هو تفهيم الاوروبيين حقيقة الدين الاسلامي وماهيته واثبات أنه ضامن للانسان نيل السعادتين وكافل له راحة الحياتين . وأما وجه كونه ضرورياً لا مناص منه فهو ان الغربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الاسلامي وما داموا جاهلين بحقيقة الاسلام ومعتقدين ما يهذى به بعض كتابهم ضده فانهم لا يستطيعون طبعاً أن يروا فى ديانة محكوميهم الا عبأ ثقيلاً على عقولهم وحملاً مضنياً لمداركهم فلا يقرونهم عليه الا احتراماً للاحساسات فقط راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه في المستقبل .

نقول بتمام الحرية ان الاوروبيين معذورون فى تصديق التهم ضد الاسلام والمسلمين ولهم الحق فى العمل ضدها ما داموا لا يرون امام اعينهم من مظاهر الدين الا البدع التى اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة وزادوا عليها أشكالاً من الاوهام والاضاليل تنفر منها الطباع البشرية وتنافى أصول المدنية . كيف نرجو أن يفهم الاوروبيين حقيقة ديننا وانه الملاك الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الاسلام الا ما يرونه امام اعينهم كل يوم مثل الصياح فى الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للأدب والعقل فى الموالد التى تقام فى كثير من نقط القطر المصري ومثل الاجتماع الى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من الوف المتفرجين والصياح الشديد بالذكر مع التمايل يميناً ويساراً الى غير ذلك

مما لو أردنا ذكره لطال بنا الكلام وخرجنا عن المقام ؟ فهل والحالة هذه نستطيع أن تنكر على من يعيب ديننا أو يلصق به شائنات التهم ؟ أليسوا معذورين فى هذا الفهم السيء ما دام يحضر هـذه المنكرات ويتفرج عليها عقلاء هذه الامة بدون ان يجدوا في انفسهم ميلاً الى رأب هذا الصدع المتفاقم الذي لم يقتصر على جرّ عوامنا الى المنكرات والآثام فقط ، بل الى الاخلال أيضاً بعقيدة التوحيد النقية وهو الامر الذي لو تأصلت جذوره فى العقول البسيطة صعب جداً اقتلاعه منها؟

أما والعلم لو بحث باحث عن علل هذا الهبوط الهائل الذى وقعنا فيه بعدذلك الصعود السريع ما وجدها الا فى ترك السنن واتباع البدع . ولو كان المجال أوسع من هذا لأرينا المطالع أن البدعة الواحدة قد يتبعها جملة عوامل شرية لا يراها الا من ينظر للاشياء بمنظار العلم وان هذه العوامل متى رسخت قواعدها وثبتت دعائمها انبنى عليها داء من ادواء الامم تظهر أعراضه وآثاره لكل مشاهـد ولو كان هو نفسه كامناً كمون الارقم فى جحره ولا يظهر الا ريثما يأنس ممن حوّله العجز عن ملاشاته .

لهذه الاسباب كلها صار الشرقى المتنوّر ملقى على عاتقه واجبان : أولهما تفهيم العالم أجمع ان الدين الاسلامى فضلاً عن كونه بريئاً من الاضاليل التى ينسبها اليه بعض الكتبة ومنزهاً عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين فانه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة حتى

ينبعثوا الى احترامه ومحبته كما يحترمه ويحبه بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه : هذا الواجب يلقى على عاتق أبناء هذه الملة الذين اسعدهم الجد بتعلم اللغات الاجنبية .

ثانيهما أن يسعى عقلاء هـذه الامة فى محو البدع التى غص بها العالم الاسلامى وصارت نقطة سوداء فى جبين الشرق وموضوع استهزاء كافة من عنده مسكة من العقل : هذا الواجب أشد لزوماً من الواجب الاول وعليه ينبني صلاح هذه الامة وقوامها فعسانا نلتفت اليه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء والا فالعاقبة وخيمة والمسؤلية عظيمة . قال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتناً كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران »

هذه الافكار كانت تجيش فى خاطرى من منذ اربع سنوات وانا اذ ذاك فى سن البدء فى العمل للوطن فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة فثابرت من حينها بهمة لا تعرف الملل على درس ما يؤهلنى الى فهم حقيقة الاسلام حتى آنست من نفسى بعض القوّة على القيام ببعض هذا الواجب الاقدس . فابتدأت أعمالى بتأليف كتاب باللغة الفرنساوية نفيت فيه عن الاسلام كل تهمة ألصقها به المفترون وأثبت بالادلة الحسية وبالاستناد على البدائه العلمية انه روح المدنية الحقيقية وعين أمنية النفس البشرية ونهاية ما ترمى اليـه القوّة العقلية وان كل رقىّ يحصل فى العالم الانسانى ليس هو الا تقرباً الى الديانة المحمدية . ولم أكد

أنتهى من تأليفه حتى بعثتنى نفسى الى ترجمته الى لغتنا العربية الشريفة لكي اكون قد قمت ببعض الواجبين المطلوبين فى آن واحد .

على اني كلفت نفسى تجشم المصاعب فى هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتي فيه تسلية لى على ما أضعت من وظيفة أو شهرة . كلا بل غرضى الوحيد من هذا العمل هو اقامة الحجج العلمية على أن دين الاسلام ليس بالدين الذى يتناساه ذووه أو يلوى الكشح عنه متبوعه . وانه ليس بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية بل هى مما تزيده تثبيتاً وتمكيناً وتزيد متبعه ايماناً ويقيناً . وانه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصاراً أولى قوة ومكانة لا ان يرى منهم اعراضاً وابتعاداً يدلان الرائى على ما الاسلام برىء منه وبعيد بعد السماء عنه .

قد كفى المسلمين اعراضاً عن دوائهم واغضاء على دائهم فلا يكونوا كالأبله الذى يحمل الدرياق الشافى فى ردنه فيغفل عنه ثم يفغر فمه منتظراً أن تمطر عليه سحائب الاوهام من سماء الاحلام غيثاً يطهره مما به ويشفيه من أوصابه . أليس يعار على متنورى هذه الامة ان تبقى حقائق دين الله مختبئة فى مكاتبهم فى مطاوي مجلداتها وهم مغرورون بزخارف أفكار البشر مما يسمونه بالنظريات الفلسفية حالة كون النسبة بين هذه الافكار كلها وبين ما لديهم آيات الحكمة التى أسدلوا عليها أستار النسيان هى اكبر بما لا يقدر مما بين أفكار الصبيان وبين افكار

حكيم مارس الايام وخبر الانام وعاش مائتى عام ؟ ألا تتوق نفس شرقى متنور الى الوقوف على ذلك السر الاعظم والناموس الاقوم الذى ساد حيناً قصيراً على سكان جزيرة العرب على ما كان بهم من شظف ووحشية فأخرجهم من ظلمات الجهالة والرذائل الى انوار المدنية والفضائل ؟ ما فائدة العلوم اذا لم تحبب الينا معاشر شبان المشرق أن نكتنه هذا السر العجيب والتطور الغريب الذى لو طبقناه على ما لدينا من المعارف المدرسية لانستطيع أن ندركه ولو بوجه عام ؟ هل فيما قرأناه من التاريخ ما يدلنا على امكان تطور أمة بأسرها وانتقالها من حالة الوحشية الى المدنية في مدة لا تتجاوز الربع قرن ؟ اللهم لا .

ماهو ذلك التطور المدهش الذى دخلت فيه الامة العربية فى مدة ثلاث وعشرين سنة ؟ هل هو أمر عادى يستطيع الانسان أن يدرك سره ويكتنه أمره بجولة فكرة أو القاء نظرة ؟

كانت الامة العربية قبل الاسلام كما يعلمها كل انسان منقسمة الي قبائل عديدة وفصائل شتى كلها متوارثة الاحقاد والضغائن متأصلة الاحن والدفائن . واقعة فيما بينها فى حروب دموية وغارات جاهلية . لا وحدة تلم شعثهم ولاجامعة توحد كلمتهم . وكانوا واقعين من جهة التدين فى أخس أنواع الوثنية . ومن جهة العادات فى أنكاها ضرراً بالحياة المدنية . فلا قانون يصلح من حالهم . ولا قاعدة يبنى عليها ضمان استقبالهم . وبالجملة كانوا بمكان من الاختلال والفاقة وسوء التربية تخطاهم فيه

كل الملوك الفاتحين مثل بختنصر وقروش والاسكندر وغيرهم . فماذا كان من أمرهم بعد بعثة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بنحو بضع وعشرين سنة ؟ كان من أمرهم أن توحدت كلمتهم واتحدت وجهتهم ووجد فيهم قانون يضمن تهذيبهم ويكفل رقيهم وتركوا جميعهم عادات آبائهم التي توارثوها وألفوها حتى كادوا أن يعبدوها . وخرجوا من ظلمات الوثنية الى أنوار العقيدة التوحيدية . وقاموا من وسط وهادهم ونجادهم يحملون للخافقين أنوار المدنية ويؤسسون أركان العدل والانسانية فى جميع ارجاء الكرة الارضية وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتدالية . وبالجملة صارت دولتهم دولة العالم بأسره بينما كان غيرهم يهيم فى وديان الجهالة ويضرب فى ليلاء الضلالة .

هذا هو التطور الغريب الذي دخلت فيه أمة العرب في سنين قلائل بعد أن كان قد مضى عليها بضعة آلاف عام وهي كما هي لم تترق عما كانت عليه قيد شبر . هل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن هذا الرقى السريع كله حصل بدون قواعد محكمة وأسس ممدنة ؟ وهل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن تلك القواعد والأسس تشابه ما لفظه بامثال ارسطو وليكورج وسولون من الحكم البسيطة والقواعد التى لو أصلحت اليوم شيئاً افسدت فى الغد اشياء كثيرة ؟ كلا . اللهم ان المسلمين عن اسرار دينهم لمحجوبون وعن بدائعه للاهون . فهبهم اللهم ميلاً الى ترييض نفوسهم فى خقائق دينك السرمدي وقانونك

الابدي . وهب اللهم بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما متعت به آباءهم
الاقدمين انك رحيم بالمؤمنين .

وهبنى اللهم من الثبات والجلد فى هذا الموقف الحرج ما يسد خلة
عجزي وقصوري عن الخوض فى مثل هذا العباب العظيم حتى أؤدي
لابناء وطنى خدمة هي أمسّ بحياتهم من كل ما عداها وأصلح لرقيهم
من كل قاعدة سواها . واجعل اللهم عملى هذا خالصاً لوجهك الكريم
نافعاً لامة نبيك الفخيم انك واسع عليم . آمين .

مقدمات

قد رأينا ان نمهد الكلام على الاسلام بمقدمات ضرورية جداً
تنشئ للمطالع فكرة عامة على حالة الانسان وتكاليف الحياة ونواميس
الرقى والتأخر الذي تجاذبه وطبيعة النظامات التى تنازعت السلطة على
الانسان من قديم الزمان الى الآن والخلاف الناشىء من زمان مديد
بين العلم والدين وغير ذلك حتى لا يكون مطالع كتابنا محتاجاً فى فهم

ما نرمي اليه الى بحث ولا تنقير وليستطيع ان يرى بعينه بطريقة حسية أن الاسلام روح المدنية الحقة وأن لا مدنية الا به او ببعض نصوصه .

هـذا وليغفر لى القراء الكرام كثرة استشهادي بأقوال علماء اوروبا فانى لم اقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين . كلا . فإن الاسلام اجل من ذلك وأعلا . بل قصدي ان أبرهن على ان كل النواميس الممدنة التى سادت على اوروبا فى القرون الاخيرة فنقلتها من الظلمة الى النور ليست بالنسبة لنواميس الاسلام الا كشعاع من شمس او قطرة من بحر . فأقول والله المستعان :

الانسان

ما هو الانسان ؟ هل هو ذلك الجسم المادي الذي يتناوبه التحليل والتركيب فينمو ويقوى ثم لما يدركه الضعف والهرم يموت ويدفن فيستحيل الى تراب تدوسه الاقدام ؟ ان كان كذلك فليس هو الا حيواناً بسيطاً يفضله الاسد بقوته والفيل بعظم جثته والقرد بعدوه وسرعة حركته ، ولما كان له من الاهمية فى هذا الوجود ما يدلنا عليه ماضيه وحاضره . أما وأبيك لو كان الظاهر عنوان الباطن فى كل شيء

لكان شأن الانسان فى هـذه الطبيعة الكثيرة العوامل شأن الريشة الخفيفة بين تيارات الاعاصـير الشديدة يدفعه تيار ويرده آخر حتى ينتهي وجوده على أسوا ما ينتهي اليه وجود الضعيف مع مغاليبه الاقوياء .

كلا ان فى الامر لسراً مكنوناً ورمزاً مصوناً كم فى العلم به من فائدة تهدينا فى الاستقبال وفى الجري عليها ضمانة لحسن المآل .

ادرس الانسان من مبدئه ثم انظر اليه فى وقتنا الحاضر تر عجباً يذهب بالعقول وسراً تعجز عن اكتناهه الفحول : ترى آيات تدهش الافكار وتستوقف الانظار . ترى ما ذا ؟ ترى كائناً عاري الجسم لين البشرة رقيق الحاشية ضعيف الساعد عديم السلاح ألقى به فى هيجاء هذه الحياة وحيداً فريداً وقذف به فى تيـار هذا الوجود طريداً شريداً يرى بعينيه الجبال الشم فيفرق من خيالها والغابات الفيحاء فيذهل من تقلب ظلالهـا والقبة الزرقاء بنجومها الزهراء فتهيبه سعتها ورفعتها . ويسمع زئير الضياغم فى الغابات فيكاد يصعق منه فرقاً اويتميز رهباً وهو بين تلك الدهشة والوحشة يحزه الحر بلفحه والبرد بنفحه ويؤلمه الجوع بحدته والعطش بشدته . كان هذا حال الانسان فى مبدا امره فماذا ترى من حاله الآن ؟ ترى ان هذا الكائن الضعيف قد قاوم كل عوارض الطبيعة المساطة عليه بجلد وثبات مدهشين وصارعها على قوتها وبطشها مصـارعة البطل المغوار بقوى ليس فى زنده مستقرها وجلد ليس فى جسمه مركزه حتى تغلب عليها وهو لم يكتف بذلك ، بل

أسرها أسراً واستخدمها لامانيه وآماله كما يستخدم الملك المنصور أسراء الحروب . ترى ذلك الكائن على ما به من لين وضعف قد اظهر من ذلك اللين صلابة واجهت الجبال الشم فنسفتها نسفاً وعدت على الصخور فسحقتها سحقاً وتوجهت للحديد المتين فأذابته اذابة وأبدى من ذلك الضعف قوة اقتادت القساور صاغرة بين يديه فتراها تخضع اليه وتلعب عند قدميه لتقر عينيه !

هل بعد هذا التدبر العلمى يقال ان الانسان هو ذلك الجسم المادي الضعيف ؟ كلا بل لابد ان يكون ذلك الجسم الطيني غلافاً لسر مكنون إن غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره . وذلك السر هو معنى الانسانية وواهب الميزة للانسان على غيره من اصناف الحيوان . نعم هذه بديهة لا تحتاج الى اثبات ، ولكن ما هي تلك المعنى الغريبة التى بسكناها فى ذلك الجسم المادي جعلته ملكاً لجميع الكائنات الارضية وسلطاناً يتصرف فيها تصرف المالك الشرعي فى ملكه ؟

لو كانت تلك المعنى الانسانية مما تقع تحت ساطة المشاعر وتدخل ضمن دائرة المحسوسات لسهل على الباحث درسها درساً مدققاً . او لو كانت هي من طبيعة معنى الحيوانية محدودة الغايات والانفعالات لكان المعانى لاكتناه اسرارها لا يكلف نفسه من المشاق ما يربو على ما يبذله الباحثون عن طباع النمل او الميكروبات . ولكن كان امرها بخلاف ذلك على خط مستقيم . فانظر الى الانسان نظرة ممعن تره جامعاً

للمتناقضات جمعاً يصعب معــه تحديد خصيصة من خصائصه بوجه التحقيق شاملاً للمتعاكسات شمولاً تضيق عن حصر آثاره قاعدة كل تدقيق كأن هذه المعنى الانسانية بحر لا يدرك غوره مسبارالعقول ولا تنتهي الى سواحله خطرات الافكار البعيدة المرامي .

اذا نظرت الى الانسان من حيثية اوصافه المكتسبة فيه فلا تستطيع أن تنتهي الى رابط يربطها ولا ناموس يضــمها . فبينما ترى رجلا قد عرف قدر الاعتدال وادرك سر الكمال فقاس امياله على مقياس الروية والتدبر ووزن اعماله بقسطاس العدل والتوسط ترى عن يمينه رجلا ثانياً سئم الدنيا سآمة لم ير معها مطمعاً فى لذة ولا مطمحاً فى ثروة وكره اليــه العمران كراهة حببت اليه سكنى قذفات الجبال وحيداً فقيراً لا يملك فتيلا ولا نقيراً واخذ يناجي ربه أن يزيده كراهة فى دنياه وأن يكافئه على ذلك برضاه . ثم ترى عن يسار ذلك المعتدل رجلا ثالثاً سحرت الدنيا لبه سحراً أعمــاه عن رؤية الفارق بين المحاسن والمقابح فأطلق لنفسه عنان الطيش وافكها من قيود العادات والتقاليد وأخذ يميل مع الشهوات حيث تميل ويتقلب مع اللهو حيث يتقلب . وبينما ترى رجلا قد نزل عن رتبة الحيوانات جهلا وغباوة حتى كادأن يساوي الصخر جموداً وخموداً ، ترى بازائه عالمــاً غزير المادة واسع الاطلاع منهوماً بكشف الاستارعن وجوه الاسرار لايرى اللذة الا نظرية يؤسسها او ظاهرة طبيعية يدركها . وبينما ترى شخصاً

استحوذ عليه حب الحياة حتى اورده موارد الحين المخجل يظن الخيال طالباً يطلبه او عفريتاً يرعبه . ترى تجاهه شجاعا يطربه وقع البيض على الخوذ ودوي المدافع فى جدران الحصون ويروقه نظر دماء الاقران تسيل على الارض كالارجوان : قل لى بعيشك هل يمكن لمن نظر الى حالة الانسان من حيث قبوله لسائر الاوصاف الممكنة أن يدعي حصرها فى قاعدة او ضمها فى رابطة واحدة ؟

ليس لأميال الانسان حد فيقف عنده بل كلما وصل الى غاية تاق الى أبعد منها ووجد من نفسه المكنة على بلوغها والقدرة على ادراكها حتى اذا نالها كان فرحه بحوزها باعثاً له على الاستزادة منها ومصغراً فى عينه ما كان فيه من قبل .

مضى زمن اتهم فيه مكتشف امريكا ومخترع التلغراف والآلة البخارية بالجنون لظن الناس استحالة ما كانوا يهمسون به فى الآذان همساً . وجاء زمن يقول فيه علماؤه انه سيأتى وقت يكون الفرق فيه بيننا وبين ابنائه كالفرق بيننا نحن وبين اخس الحيوانات .

هل وقف الطماح بالانسان عند هذا الحد المدهش ؟ كلا ان الطمع الفكري بلغ عند الانسان مبلغاً نظر به الى حالة العلم الآن فلم يرقه شيء فيه وصغر له الطموح عظم ما نال عقب تلك الجهالة الاولى فنطق بلسان احد علماء امريكا قائلا : انما نمتاز عن اسلافنا فى العلم بكوننا علمنا اننا جهلاء . أما هم فكانوا يعتقدون انهم يعلمون شيئاً !

ليت شعري ما هذه المعنى الانسانية التى تشعر بعظمتها وجلالة قدرها لدرجة لا تعد ما هي فيه الآن الا جهالة ظلماء ؟ فهى تأنف ان تغتبط بما وصلت اليه من سائر الاسرار وترى ان امامها غاية لا تحدها الأوهام ولا تصل اليها مرامي الافكار .

اما نحن فلا يسعنا بعد هـذا الامعان الا ان نحكم عن بينة بأن الفارق بين الانسان والحيوان ليس هوالنطق كما قال ارسطو ولا هو التفكر بالقوة كما مال اليه فلاسفة العرب ولا هو التدين كما ذهب اليه المسيو كاترفاج . بل هو قبول الانسان للترقى العقلى والاخلاقى الى ما لا نهاية له ووقوف الحيوان فى درجة لا يتعداها فتكون نسبة الحيوان الى الانسان كنسبة الادراك المحصور الى غير المحصور وشتان ما بين طرفي هذه النسبة .

ان كان لا بد من الاستشهاد بقول عالم اوروبى فى مثل هـذه البداءة فاليك ما قاله العلامة (لاروس) فى دائرة معارفه الكبيرة بعد ان تكلم على رقي الانسـان ما نصه : « ان من التهور الشائن وضع حد لرقى الانسان . » وقال المسيو (رينان) الشهير فى كتابه تاريخ الاديان : « امعنت النظر فى حال الانسان ووجدته وقتاً من الاوقات يبذل وسعه ويستنفد قواه لكي يتوصل الى ادراك السبب الذي لا نهـاية لحدود سلطانه ولكي يعلوعلى هذا العالم المادي . » أفليس هذا دليلاً محسوساً على أنه يسمو بحتده ويجنس حظه ممتاز عن هذه الاشياء المادية المحدودة ؟

لاشك أن مشاهدة هذا الجهد من النفس لكي ترقى الى السموات العلا تبعث فى المشاهد الميل الى احترام النوع الانساني الذي يجدر به هو نفسه أن يفتخر بعظمته افتخاراً .

ولكن كما قضى الله للنوع الانساني أن يكون اهلاً لاعتلاء درجات كل ما يتصور من الفضائل كذلك حكم عليه بأن يكون قابلا للنزول الى أخس دركات الرذائل : وفى درس تاريخ الانسان اكبر عبرة لمن يريد أن يتفكر .

خلق الانسان على تمام الجهل بالكون الذي قذف به فيه بخلاف الحيوان فان الخالق جل شأنه وهبه من الالهام اكبر مرشد له لنوال ما يكفل له حياته ويحفظ لنوعه بقاءه فتراه لا ينساق الى الافراط ولا التفريط لدرجة تودي به ونشأ مطبوعا على الاعمال التى تهيء له راحة حياته من بنـاء مسكن واعداد محل لائق لوضع صغاره فيه الى غير ذلك من الامور التى يندهش منها الانسان اذا عنى بدرس علم الحيوان . أما الانسان فقد جرد من كل هذه الخصائص بالمرة وعوض عنها مزية الحرية فى التصرف بالقوة الفكرية تصرفاً غير محجور .

وجد الانسان وهو شاعر على ما به من ضعف وعجز بانه مليك كل الكائنات الارضية وزهرة هذه العوالم الكونية فلم يثنـه ضعفه وفاقته عن التطلع للنقطة الرفيعة التى اعدت له والتى يرى مثالهـا فى وجدانه يتلألأ آناً ثم يختفي آناً لينشأ له بين الرجاء واليأس باعث قوي

على اعمال مواهبه واجهادها والجري وراء تلك المنصة العليا التي تحس بها نفسه احساساً سرياً بدون علم بماهياتها ولا كيفيتها . اختلف افراد النوع الانساني على حسب الامزجة والامكنة والازمنة في ماهية أمنية النفس البشرية وهمّ كل منهم على قدر ما خولته المكنة وأمكنته الفرصة بالبحث عن تلك الرغيبة الروحية فظنها بعضهم فى الملاذ البدنية والشهوات البهيمية فدأبوا على اختراع انواع الزينة ومهيآت الطرب فنشأت من ذلك الصنائع الجميلة على اختلاف انواعها وتباين اصنافها مع ما استلزمته فى اثناء البحث عليها من قواعد الصنائع النافعة والاعمال المفيدة . وزعمها بعضهم فى علو الكلمة وبعد الصيت فجد فى تدويخ البلاد وتذليل العباد فنشأت من ذلك الحروب والغارات مع ما استلزمته من معارف ومعلومات ومن صعود لبعض الامم وهبوط للبعض الآخر مما له ارتباط قوي بتدرج الشعوب في مدارج التقدم والحضارة . وحسبها غيرهم فى ترويض النفوس وتهذيب الطباع وحرث القوة الفكرية واستثمارها فنشأت من ذلك علوم الاخلاق والابحاث العلمية والعملية والمسائل الفلسفية مما كان له أثر عجيب فى تمية المادة العقلية وتوسيع نطاق القوة الفكرية . وعلى هذا النسق من اختلاف المشارب والوجهات فى البحث عن السعادة النفسية المتمناة تم للانسان من الرقي ما بلغه الآن . وسيستمر هذا الانفعال النفسى وراء هذه السعادة المرجوة حتى يتم الابداع الذى اراده الله أن يتم على يد هذا النوع الانساني .

في اثناء هذا التدافع المدهش كان الخالق الحكيم جل شأنه يرسل رجالاً هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام فيوحي اليهم الطريقة الملائمة لعصورهم والتى لوانتهجها الانسان لوصل الى سعادته من اقرب الطرق الموصلة اليها . فكان يتبعهم من الناس من قدرالله ان يكون على ايديهم نقل النوع الانسانى من حالة الى حالة ارقى منها فيستمرون عاملين بما اخذوه من نبي زمانهم برهة قصيرة ثم يعودون الى تدافعهم الاول بعد ان يحرفوا نصوص كتبهم تحريفاً يجعلها غير صالحة لقيادتهم وضبط اهوائهم ولا يزالون كذلك حتى تهيئهم نواميس الحياة الى صعود درجة اخرى من سلم المدنية والترقى فيرسل الله تعالى اليهم رسولا من انفسهم يكون فى مقدمتهم عند اعتلائهم تلك الدرجة الجديدة . وهكذا كان شأن الامم كافة من التجالد والتدافع حتى تم نمو العقل الانسانى وصار مقتدراً على تمييز الغث من السمين فأرسل الله سيد الوجود وخاتم الانبياء محمداً صلى الله عليه وسلم بالشريعة الخالدة والدين الابدي . ولا يهولنك ما ترى من آثار التجالد الفكري والتضارب العقلي بين سكان هذه الكرة ولا تستنتجن من ذلك قرب ظهور نبي آخر فان كل ما تراه حاصلا أمامك من هذه الجلبة والصياح والتجاذب ليس هو الا اعداداً لابناء القرون الحاضرة والمستقبلة الى فهم حقيقة الاسلام وادراك اسراره . نعم « سنريهم آياتنا في الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . »

تكاليف الحياة

الحياة وما ادراك ما الحياة : حرب عوان واهوال تشيب لها الولدان وتخضع لها الرؤوس ذوات التيجان . يتساوى فيها المليك والمملوك والسري والصعلوك والجهال والعلماء والاغبياء والحكماء . بل هي مورد تتزاحم حوله النفوس ولا تفوز بحسوة منه الا بعد ان تصادم العظائم وتتجشم الدواهي الدواهم وهي حسوة ممزوجة بالاكدار مشوبة بالاوضار يغص بها حاسيها غصة تعجز الطب والاطباء وتتعاصى على كل دواء .

حياة الانسان وما ادراك ما حياة الانسان : مدة قصيرة الامد كثيرة الهم والنكد يكون الانسان فيها هدفاً لسهام الحوادث وعرضة لنبال الكوارث لا تغنى عنه الجنن الواقية ولا الدروع المضاعفة ولا الحصون الشامخة ولا البروج الشاهقة . سهام ونبال تلازمه من يوم ميلاده ملازمة العرض للجوهر فيشب الانسان ويشيب وهى لا تفتر عن وخزه ولا تقصر عن طعنه حتى يود الانسان أن لو كان من بعض الحيوان ولم يمن لعلو مكانته بما تشيب لهوله نواصى الاجيال ولا

تستطيع ان تحتمله شوامخ الجبال . كلا . « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان . »

لست أيها الانسان ملكا فتكون بمعزل عن دواعى الشهوات ومنغصاتها ، ولست حيواناً فيضعف فيك الشعور بتأثيرات الحياة وويلاتها بل قضى خالقك جل شأنه أن تكون بين هاتين الرتبتين فى منزلة لو حفظت لنفسك فيها حق حرمتها لخدمتك الاملاك ورفعتك على الافلاك ولو تصرت فى واجب نفسك ورضخت لسلطان البشرية فيك ازلت الى منزلة من الضعة يعافها أخس الحيوانات ويأنف مما أنت فيه من السوآت . هذا حظك قد خطه بارئ النسم من القدم وأودع فيك من الاستعداد والقابلية ما يسمو بك الى المحل الذي يليق بك من الكمال والرفعة . وأسكن فؤادك عقلا يضيء عليك حوالك الاحوال ويفكك عنك من أغلال الأهوال لو أحسنت استشارته وأجريت اشارته. ولم يخلق ما تراه أمامك من المصاعب والمصائب لتعذيبك على غير جدوى أو لكي يسمع عويلك من البلوى ، بل تذكرة تقيمك من عثرة وتحميك من كبوة وتزعك من هلكة : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون . » نعم ليس ماتراه أمام عينيك من الاهوال أو مايعترض أمانيك من تقلبات الاحوال عقبات أمام سعادتك أو موانع دون أمنيتك . فلا تكن كالطفل العاصى

يزعه أبوه عن البطالة فيظنه قاسياً عليه غيرحان اليه . كلا : « الله ارأف بعباده من هذا العصفور على فرخه. » حديث شريف

سبق أن بينا فى مقالنا السابق أن الانسان مستعد لأن يرقى أوج الملكوت الاعلى ومستأهل لان يتسنم هاته الرتب القصوى مما لايحده وصف الواصفين أو تخيلات الشعراء المداحين . فاذا تقرر لديك ذلك فما هى الوسائل التى يجب أن ترفعك من معهد هذا الطين الميت الى محتد ذلك النور الحي ؟ أتريد ان تنزل اليك ملائكة من السماء فيقودونك بيدك الى ما أعد لك من مقاوم الشرف ومنازل الرفعة ؟ ان قلت نعم فما الفائدة اذن من ايداع الخالق فيك هذه المنح العلوية العظمى مما لو التفت اليها قليلا ولو قدر التفاتك الى نقش الدينار ورسمه لعلمت أن فى فؤادك كنزاً لو انفدت عمرك فى تدبر ذخائره لما وصلت الى عشر عشيرها ؟ كنز يصغر اليك شأن الذهب الابريز والجوهر العزيز ويبعثك قسراً عنك لالتماس الرتبة التى تليق بعظمتك من هذا الوجود ويريك ان سفاسف الامور ودنايا الاعمال ليس مما يجوز لمثلك أن يعيرها فكراً أو يمر بها مراً : « ما وسعتنى ارضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدي المؤمن اللين الوادع . » حديث قدسى

ايه أيها الانسان ! انك عن نفسك لمحجوب ومن أشرف مزاياك لمسلوب ، ليس مثلك من يهتز لخرافات الشعراء فيذم معهم الزمان والمكان ويتباكى على ما سيكون وما قد كان . ليس مثلك من يستميت اكسره

أو يقتل صديقه لاجـل ابره أو يبيع رداءه فى سبيل الخمرة ! ماهذه الغفلة ! ما هذه السكرة ! بل ماهذا الموت ! أضعت أيامك فى تخيل المصائب والخشية من النوائب وصرفت همك فى أوهام يستنكفها الحيوان ويمجها العرفان ؟ هل يليق بمن يحصر الكون بكواكبه والعالم بعجائبه فى فكره وهو جالس مع صاحبه أن يتدنى الى درجة من الاستكانة والمهانة يضيع بها تلك المواهب العظمى والمنح الكبرى لخزية يفعلها أو غيبة يتلمظ بها حتى اذا تجلت له نتـائج تهامله وابتدأت أن توقظه من سباته ارتعدت فرائصه رعباً وارتجت مفاصله رهباً وأخذ ينادي وامصيبتاه ثم يأخذ يبكي بكاء الثكلى ويذرف الدموع الحرّى مغمضاً عينه عن النظر وبصيرته عن تبين العبر فيضيع بجهله مزية ما يرفعه الى محتده الاعلى ومركزه الاسمى ؟ « ومن الناس من يعبدالله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »

ان الذي تسميه مصائب أيها الانسان ليس هو الا يد الجبار الاعلى تستلفتك الى الغاية التى خلقت لاجلها وتبعثك من جدث الجمود الذى اوقعك فيه تماديك في الني المزرى مع ما انطويت عليه من الغرائز الشريفة والنحائز المنيفة . نعم ان الذى خلقك من الطين الاصم واراد ان يعلو بك الى أعلى مراكز الكمال سلط عليـك عوامل ثلاثة لو تبصرت فى مصاعبها وتدبرت فى اسبابها ومسبباتها لرأيت ان طريق السعادة التى

تنشدها وتموت بحسرة دونها هو بين يديك وأمام عينيك وما عليك الا ان تجري على سننها القويم وصراطها المستقيم لتصل الى غرضك العظيم : «انا هديناه السبيل» .

ما هي تلك العوامل الثلاثة المهمة ؟ هي الطبيعة ونفس الانسان وبنو نوعه . أما الطبيعة فهي محتد جسم الانسان بها ترتبط سعادته المادية ومنها ينبوع راحته الحسية . قذف الانسان من يوم خلق الى هذا العالم المادي فتلقاه بنواميسه الكثيرة وعوارضه الشديدة وهو كما وصفه العلامة (لينيه) عاري الجسم وبدون سلاح فوخزته الشمس بحرارتها والارض برطوبتها والسماء بامطارها والصحاري بسمومها واعاصيرها والوحوش بانيابها واظفارها فصار الانسان بين هذه العوامل هدفاً لسهام لا مجن يقيه منها ولا وسيلة تبعده عنها . فلو كان كغيره من الحيوانات محدود القوى الادراكية لما أمكنه ان يعيش طرفة عين ، ولكن الله جل جلاله قد قذف به الى هذه الاهوال بعد ان منحه من المواهب ما يستطيع بها ان يتغلب على الطبيعة ويأسرها فلم تفل عزيمته ولم تتثبط همته بل قاتلها بسلاح فكره الحديد وابتكر من الصنائع الأولية ما يحميه منها وقتاً ما . ولم يزل يجد ويجتهد فى تحسين تلك الطرق الواقية حتى ارتقى شأنه شيئاً فشيئاً فصار يتمكن من بناء البيوتات بعد سكنى المغارات ويحرث الارض ليستخرج خيراتها بعد ان كان يتغذى بجذور الاشجار واوراقها وهكذا ، ولكن الطبيعة لم تغفل عنه

طرفة عين بتقدير العزيز العليم كي لا تركد همته وتسكن حركته فصار كلما اتقن عملاً عدت الطبيعة عليه فيلتجئ الى تحسينه ولم يزل ذلك التدافع بيننا وبين الطبيعة الى اليوم .

كان من نتائج هذه الحرب العوان ارتقاء الانسان مادياً للدرجة التي نرى بها لندن وپاريس من عجائب الصناعات وغرائب المكتشفات مما لو حدث به الشرقى لرمى محدثه بالجنون لعدم تصوره ما يقول . هذا الارتقاء يستلزم بالطبع ارتقاء أدبياً عظيما لانه لا يتأتى الا باعمال القوة العقلية واجهادها وهذه القوة هي كما لا يخفى محتد كل الفضائل البشرية .

فانظر بأبيك الى ما كان يسميه آباؤنا مصائب وجوائح كيف بعث الانسان الى الارتقاء وحسن الحال وجذبه رغم انفه من طور البهيمية الى طور الانسانية ! هل بعد هذا يصح ان نذم تلك المصائب ونتبرم منها بعد علمنا بانها السائق الوحيد للفكرة الانسانيـة الى البحث عن اسباب السعادة والرفاهية ؟ أما يجب علينا بعد هذا ان لا نجعل جزعنا من المصائب الطبيعية غشاء كثيفاً بيننا وبين استنباط الطرق الى تخفيف وطأتها واستئصالها مرة واحدة ؟ فاذا كان فى مكنة الفكرة البشرية ان تخترع آلة تجتذب بها الصواعق صاغرة وتلقى بها الى اسفل سافلين ، فكيف لا يكون فى مكنتها ان تبتكر طريقـة بسيطة تخفف من ويلات دودة القطن التى يقف فلاحنا أمامها صاغراً يضرب صدره ويمزق نفسه ؟

رزقت الامم الاوروبية حسن التبصر فى جوائح الطبيعة فتراهم يتربصون لإحداثها بالمرصاد فكلما ألم بهم حادث هبوا يبحثون عن طريقة لازالته او تقليل خطارته ولا ينامون عن مشروعهم حتى يحققوه علماً منهم بأن في الفكرة الانسانية من الاساليب مايضمن حياة مستقبلهم كما ضمن حياة ماضيهم : هذا هو سبب من اسباب رقيهم المدهش الذي قاموا يسيطرون به على الشرق سيطرة الرفيع على الوضيع . فما لنا عن التذكرة معرضون ؟

أما العامل النفساني على الرقي الانساني فهو من اقوى العوامل واكثرها تأثيراً ولا يمتاز عن سابقه الا فى كونه معنوياً . يشعر كل انسان فى نفسه بان وجدانه ميدان فسيح لشهوات تتوزعه واميال تتنازعه و آمال تتقاسمه مما لا يستطيع اماتته ولا ابطال تأثيره عليه مهما بذل من المجهودات فى ذلك السبيل . ليست تلك الشهوات مما تنصاع لقوانين المحسوسات حتى يستطاع وزنها بقسطاس الاعتدال . ولا هاتيك الاميال مما تقبل التحديد حتى يرى الانسان بعينه النقطة التى هو مسوق اليها قسراً ولا تلك الآمال مما ترضخ لأحكام القنوع حتى يتسنى له ان يوقفها عند نقطة مخصوصة . بل قضى الحكيم المختار ان تنطلق هذه العوامل المعنوية من كل قيد وان تتجاوز كل حد وان تشذ عن كل رابطة حتى صارت بما أودعت من روح الحركة والتأثير كأنها تيارات متعاكسة تتصادم في فؤاد الانسان تصادماً يهوله مرآه

ويرعبه منظره ولو كان هو نفسه محتدها ومستقرها.

انظر الى ذلك الرجل الرث الهيئة الخلق السربال الجالس فى ظل تلك الدوحة ، أتظن أن سكونه الظاهري دليل على سكونه الباطنى ، او ان حالته من الفاقة نهنهت وجدانه عن تلك المطامع السرية والمعامع الضميرية ؟ كلا . ان حاله ذلك لم يقلل فيه تلك الانفعالات النفسية عما هي عليه عند اكبر ملك جالس على اسمى اريكة لأمة متمدنة .

وجد هذا الانسان الضعيف على سطح هذه الكرة الارضية وهو كما هو شيء غير محدود فى جسم محدود او بحر لا نهاية لسواحله فى فؤاد لا يزيد عن الكف مقاساً فلم يستطع أن يطمئن الى شيء من الاشياء المحدودة او يركن الى كائن من الكائنات المشهودة الا ريثما يتحقق ان ذلك الشيء ليس مما يصلح ان يكون سفينة له يقطع على ظهرها عباب ذلك البحر الزاخر الذي يسمع دوى أمواجه داخل فؤاده . نعم بذل الانسان وسعه من القدم فى التحسس على ما تأنس نفسه الا به فأم كل طريق وقاوم كل تيار وسلك كل سهل واقتحم كل حزن ونزل كل غور وصعد كل نجد وتوقل كل رعن وهو بين كل هذه الهمم الشديدة يصادف مانعاً فيرده او عقبة فتصده فيزيد خبرة بماهية السائق له والمسوق اليه فيصاح من خطأه ويقلل من غلطه فيترفع قليلاً عما كان عليه فى سابق بحثه فتقابله الجوائح وتصادمه البوائق فيعلم ان غرضه اسمى من ذلك . وهكذا حصل حتى تم له ان ينتقل

من دور التسفل فى البحث الى دور الاستعلاء فيه . فصار الآن كلما طالبته النفس برغبتها التى بنظره الى السماء بعد ان كان فى السابق يأتى به الى الارض .

هذا العامل النفسى له فضل عظيم فى حفظ الانسان من الرضوخ لمؤثرات البهيمية فيه فهو يقع فى الوحشية التى لو اتصف بها لكان كائناً يتبرأ منه ويؤنف انينتسب الى نوعه . وهذا العامل نفسه هو الباعث الى تأليف علوم الاخلاق والبحث فى الالهيات والنفسيات والمحرض على الجد فى علوم الحكمة مما كان ولم يزل له أثر عظيم فى تحسين حالة النوع الانسانى .

أما العامل النوعى فهو نتيجة العامل السابق ولم نسمه عاملاً قائماً بذاته الا لما اتجه من الانقلابات الشديدة فى النوع البشري وفى الفرد الواحد .

قلنا اكثر من مرة ان الانسان ممتاز عن سائر الكائنات بانطلاق امياله وشهواته عن القيود ومجاوزة انفعالاته لكل ما يتصور من الحدود بخلاف الحيوانات فانها مطبوعة على الانصياع لنواميس ثابتة وقواعد عامة لا تتعداها ولن تستطيع ذلك . اذا علمت هذا فقل لى بعيشك ماكان يستحيل اليه حال الانسان مع انطلاق خصائصه عن القيود لولم يصادف فى حياته أموراً تجبره رغم أنفه الى تحديد نقطة الاعتدال فيها وايقاف امياله عند تخوم التوسط فى سائر مراسيها ؟

أما ترى معنا انه كان يتلاشى وجوده او يبقى ولـكن مجذوباً مع تيار واحد يحسب انه سيوصله الى غاية يقف عندها ويتملى بسعادته فيها فيخونه الحسبان فيظل مقذوفاً الى حيث يلاقى حتفه على اسوأ حالة ؟

اذا اعتقد رجل ان السعادة فى الغنى وانواعه غـير محدودة فى وجدانه ونهاياته غير مرتسمة فى جنانه ، فماذا يكون حاله فى هذا السبيل المميت للعواطف البشرية اذا لم يصادف امامه مانعاً يصده ليقف قليلاً فيرجع الى نفسه رجعة يفهم بها انه لو عاش الف عام دائباً على سلوك سبيل الثروة لما وصل الى غاية مما يؤمله وانه لو صار قارون زمانه مالاً فلن يكون اسعد أهله حالاً .

نعم ان الذى خلق الانسان واطلق مداركه من كل قيد خلق بازائها موانع تصدها لتزعها عن الافراط كما وضع وراءه دوافع تصيح به لتردعه عن التفريط . فاما تلك البواعث الدافعة له الى الامام نقد درسناها فى الفصلين السابقين . وأما الموانع التى تعترضه لتجبره الى الاعتدال فى مطلبه فاهمها مقاومة بنى نوعه ومزاحمتهم له فى كل رغائبه : هذه المزاحمة تنقسم الى قسمين عظيمين ، أولهما مزاحمة افراد الجمعية التى يعد الرجل فرداً منها والثانية مزاحمة الجمعيات بعضها لبعض فى التسابق الى ما يقيم كيانها من أمور هذه الحياة . هذان القسمان من التزاحم المعبر عنهما بتنازع البقاء هما السببان الرئيسان اللذان علما الانسان رغم أنفه ثلاثة أمور عظيمة جداً هي نظام حياة الامم ومساكها :

أولها لعدم الغفلة عن الحق لأن الاهمال فيه على حسب قوانين الحياة مسقط له اسقاطاً كلياً . ثانيها معرفة قواعد العدل لأن الانسان بالجور يجر اليه أضغان امثاله فتسوء حالته ويحرم من سائر حقوقه . ثالثها احترام النوع الانسانى باكمله . هذه الثلاثة امور كما هي قوام اعمال الافراد هي ايضاً نظام الامم العظيمة المتمتعة بنعمة الاستقلال . فان الامة المستقلة اذا اهملت مجاراة جاراتها سبقتها الى مطالبها وحرمتها من مقومات حياتها ولا يعد هذا ظلماً منهن بل تعتبر هي الظالمة الاثيمة باهمالها استعمال خصائصها المودعة فيها . ومن يتأمل فى حالة الجمعيات البشرية المختلفة ير العجب العجاب من آيات المسابقة . هذا من حيثية الامر الاول . وأما الامر الثانى وهو العدل فان من اقل خصائصه في الجمعية حدوث الاطمئنان المتبادل على الحق والعرض وعدم الرهبة من العدوان عليهما جرياً مع الاهواء . ولا يخفى ما ينبنى على هذا الاطمئنان المتبادل من التماسك بين سائر الافراد والتضافر فيما بينهم على السعى الى تحقيق غرضهم المشترك وهو سعادة الجمعية . ومن يرد برهاناً محسوساً على حسن نتائج العدل فليتدبر فى احوال الجمعيات الحاضرة والغابرة ليغنى عن كثير من التطويل

واما عاطفة احترام سائر افراد النوع الانسانى فانها ما انبثت فى أمة حية الا وقللت من حدة الاسلحة الموجهة اليها بتأثير تنازع البقاء وكسرت من نصال مجاوريها الطامعين فيها وأماتت من عرامهم وشرتهم

لدرجة تطمئن به على نفسها اكثر من اطمئنانها بقوتها وعظمتها .

لنرجع الى ما كنا بصدده فنقول : ان هذه الثلاثة عوامل الرئيسة (الطبيعة ونفس الانسان وبنونوعه) مع النواميس الكثيرة الثانوية التى تستلزمها هي بواعث الرقي الانسانى قدرها الخالق جل شأنه تقديراً لأجل ان ترفع الانسان رغماً عنه من درجة الوحشية الى درجة المدنية او السعادة الانسانية وهي عينها بحث الباحثين وغرض العلماء المحققين من منذ آلاف من السنين الى هذا الحين .



الدين والعلم

ان المنابذة بين رجال الدين ورجال العلم ليست بقريبة العهد فان التاريخ يدلنا على انه من منذ ازمان بعيدة جداً كانت المشاحنات والمشاغب قائمة بين الطرفين فى اغلب الامم ، الا ان العصور المتقدمة كانت تمتاز عن عصرنا الحاضر فى قساوة تلك المشاكل وصرامتها . فان كثيراً من فلاسفة الامم حكم عليهم بالاعدام بالسم او الحديد اوالنيران لمحض كونهم قاموا ينيرون عقول مواطنيهم من الاوهام التى تحط بشأن العقل وتطفئ من نوره . أما فى عصرنا الحاضر فان العلم على

ما قاله المسيو (برتلو) احد نظار خارجية فرنسا واكبر علمائها الكيماويين قد نال حريته المطلقة وصار لا يخشى سيطرة الدين عليه . لقد صدق المسيو (برتلو) فانا نتلو مؤلفات القوم العلمية فلا نرى الا طعناً على الاديان وتنديداً بها يدلنا على ان القوم قد مرقوا منها مروق السهم من الرمية ولم يكفهم ذلك . بل أخذوا ينذرونها بالانمحاء العاجل لعدم انطباقها على النواميس المرقية للانسانية ولا على القواعد العلمية على زعمهم .

الف المسيو (بنجامن كونستان) كتاباً سماه (الدين وينبوعه واشكاله وترقيه) بحث فيه عن العلل التي انهكت جسم الجمعيات البشرية من جراء الاعتقادات الباطلة ثم حكم بان مداواة هذه العلل لا تتأتى الا بحرية الضمير وحرية الاعتقاد والحرية الشخصية وبالاختصار كل الحريات الضرورية ثم قال : « بهذه الطريقة تنقى الاديان عن ادرانها ولكننا لا نخال ان ذلك يتحقق مطلقاً لاعتقادنا انها لن تترك شيئاً من اسسها . ولكن حيث ان هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت انمحاء الديانات وزوالها . » نحن نعجب للغاية من كون مثل هذا العالم الشهير يحكم على سائر الديانات بدون استثناء بالانمحاء والزوال حال كونه لم يدرسها كلها طبعاً لانه لو درس الاسلام ولو درساً سطحياً لتحقق قبل كل شيء انه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها . ولكننا في هذه المقالة سنقتصر على ايراد اشد

المطاعن على الاديان ونقط الضعف فيها نقلا عن اشهر علماء اوروبا ليقف قارئنا على اتجاه الافكار الاوروبية العامية وليتحقق بعد أن نورد عليه أسس الاسلام انه هو حقيقة أمنية النفوس وخطية الارواح .

قلنا ان المسيو (كونستان) قد انذر سائر الاديان بالزوال والآن نقول انه علل ذلك تعليلا فلسفياً فقال : « ان كل قاعدة مهما كانت نافعة فى الحال فلا بد ان تكون محتوية على جرثومة تعارض الرقي فى الاستقبال لان تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلا عديم الحراك يأبى على العقل البشري اتباعه فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتطهره . اذا حصل ذلك ينفصل فى الحال الاحساس الدينى عن تلك القاعدة المتحجرة ويطلب سواها من القواعد التى لا تجرحه ولا تحرجه ولا يزال يضطرب حتى يصادفها . »

درس القوم الانسان درساً مدققاً واهتدوا الى الطريق الذي يجب ان يسلكه لكي يصل الى سعادته وعلموا انه لن يستطيع ان يؤدى الوظيفة المهمة التى أعدته لها العناية الالهية الا باستعمال سائر خصائصه ومواهبه الممنوحة له وعدم قتل عاطفة من عواطفه . ثم نظروا نظرة الى الماضى فرأوا ان الذي اخر العالم الانساني عن الوصول الى ما هيئ له من مقاوم الرفعة هو الانصياع الى اوامر رجال ادعوا انهم قادة الاديان ورؤساؤها فأنحوا عليهم طعناً وتنديداً ورموا تعاليمهم بتهمة تأخير الانسان وإهباطه ومن ذلك ما قاله (فويرباش) متهكماً : « ان

الفضيلة الدينية وعلى الخصوص الفضيلة العليا اي فضيلة الاولياء هى ان تنبذ الحياة المدنية والسياسية وان تطرح سائرالاعمال والاشياء الدنيوية كأنها لهو باطل لاجل ان تستطيع بدون ترويح لنفسك وبقلب منكسر ان تذبل فى انتظارالجنة . وان تقتل جميع عواطفك واميالك الطبيعية وتميت نفسك وتذللها . »

رأى علماءاوروبا — والدليل الحسى بين ايديهم — ان رقي الانسان منوط برقي العلم ونموه ، وان نمو العلم ورقيه مرتبط بانطلاق العقل من قيوده وتحرره من اصفاده وعدم سيطرة شيء من الاشياء على الابحاث العلمية حتى لا يتأتى من تلك السيطرة ما حصل من نتائج المنابذة بين رجال الاديان ورجال العلوم في الازمنة الماضية . قال المسيو (بلوك) : « ان رقي القوة الفكرية وحسن الحكم على الاشياء يتعلق بنمو العلم . وقد تحصلنا على هذه النتيجة بترقية معلوماتنا التى هدمت اركان كثير من ضلالاتنا السابقة من جهة ومن جهة اخرى باستعمالنا لحسن النظر والتدقيق فى الاشياء . »

لاعتقاد العلماء الاوروبيين بأن حرية العقل والعلم هى مناط كل السعادات المادية والمعنوية تراهم لا يستطيعون ان يكتبوا تاريخ الضغط عليهما الا بمزيد الانفعال والتغيظ من الماضي متشفين من الذين يؤملون ان يعيدوا الكرة . ولنترجم قطعة صغيرة من اقوال (لاروس) الشهير ليرى القارئ مقدار التحمس الذى يتذكر به علماء الغرب ضغط

الزمان السابق قال : « ان قلنا ان الاحسان يقتضى اعتقاد الاشياء المعقولة يقولون كلا ، كلا . ثم يسعون فى تذليل هذا العقل الانسانى الذى يدّعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم . حتى اذا اعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات كأنها أمور معتادة وتظن الابيض اسود وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا . نطيع من ؟ هل نطيع العقل ؟ هل الواجبات الطبيعية ؟ هل الاحساسات القلبية ؟ هل النواميس الحقيقية المفيدة للانسانية ، والتى تنتج من تلك القواعد نفسها ؟ كلا . ولكن أطع وانت اعمى الى الذى يحكم باسم الله حتى ولو امرك بقتل مليكك او ابيك او بعمل مقتلة عامة فانه ليس لك لا روح ولا ضمير ، انما انت ميت فى الله . »

الى هذا الحد واكثر وصلت مناوأة علماء اوروپا للاديان الموجودة . ولكن هل نستنتج من هذه المناوأة انهم تركوا التدين بالمرة وزعموا انهم استغنوا بعلمهم عن الاخبات والخضوع لخالقهم وخالق كل شىء ؟ كلا . انهم ليقرّون مع اصحاب الاديان ويزيدون عليهم فى استدلالهم بالابحاث العلمية ان الاحساس الديني هو غريزة النفس البشرية لا تقل في الوضوح والتأثير عن الاحساس بضرورة الغذاء . قال (جيزلر) الفيلسوف الالماني فى كتابه تاريخ الاعتقادات : « الدين مخلد مثل خلود الاحساس الذي ينتجه . ولكن علوم الدين هى مثل سائر العلوم الاخرى يجب ان تكون قابلة للرقي على قدر الرقي العقلي وذلك مثل

العلاقة الموجودة دائماً بين الحقوق وعلم التشريع . فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب ان يتغير ويتهذب على الدوام . »

وقال المسيو (ارنست رينـان) فى كتابه المسمى تاريخ الاديان :

« من الممكن ان يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحيـاة ونعيمها . ومن الممكن ان تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل ان ينمحي التدين او يتلاشى بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية . »

ملخص الامر ان علماء اوروبا الذين يركن اليهم مجمعون على انه من المحال ان تزول من النفس غريزة التدين كما يستحيل ان تزول منها غريزة الحب او البغض ، ولكنهم قرروا مع ذلك — وكتبهم شاهدة عليهم — أن لا دين من الاديان الموجودة يصلح لأن يكون الدين العام للجمعية البشرية المستقبلة ولا الحاضرة . لماذا ؟ قالوا لعدم انطباق اساساتها على قواعد العـلم ولمعاكسة نصوصها لبدائه العقل ولتقييدها الامور تقييداً ينافي ما عليه المدارك البشرية من الحرية والانطلاق . ولذلك قال احد فلاسفة اوروبا ان الدين كان يبقى غير قابل للزوال والتلاشى اذا كانت قواعده مطلقة عن الحدود ونواميسه مجردة عن القيود كما هو استعداد الانسان للكمال المطلق وأهليته للرقي الذى لايحده وصف الواصف . ويقولون انه لو كان دين من الاديان الحاضرة يستطيع ان يؤلف بين

الاحساس الديني المغروس فى جبلة الانسان و بين مطالب الحياة وواجباتها ويسير بالجمعية البشرية الى حيث هدتنا اليه الابحاث العلمية من السعادة المرجوة للزم الاعتراف بضرورته اعترافاً قطعياً . قال (لاروس) بعد ان ندد بنظامات الاديان ما يأتي : « ليست هي الديانة التى تحث الرجل على اداء واجباته بل هو الفكر العام وقوة الطباع والاحساسات التى تنشأ فى داخلية العائلات تحت ظل ذلك الفكر العام الذى هو نفسه يزيد تهذباً ولطفاً كلما تقدمت المدنية والمعلومات . فان عرّفت الديانة بانها مجموع افكار صالحة لربط جميع افراد البشر الى جمعية واحدة متمتعة بالفوائد المادية كما هى متنورة فى القوة العقلية فقد حق لك اذن ان تقول ان الدين ضروري للنوع الانسانى . »

هذا ومن الادلة الحسية على ان العقل البشري مهما ترقى وتقدم فلا يستطيع ان يعيش بلا دين هو أن طائفة كبيرة من علماء اوروبا قامت بتأليف ديانة سمتها الديانة الطبيعية ولم يدخلوا اليها من القواعد والاصول الا ما دل على حقيقته البرهان وقام بالدلالة عليه الحس والعيان . وسنأتي فى الكلام على أسس الاسلام على اهم قواعد ذلك الدين الجديد ليرى المسلمون باعينهم ان دينهم لم يترك مجالاً لجائل ولا مقالاً لقائل : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون . »

ما هو الاسلام ؟

أي بليغ يتصدى للكلام على الاسلام ولا يشكو من العجز التام والقصور البين عن القيام بتوفية هذا المقام السامي حقه من التبيين ؟ وأي حكيم يتعرض لتفصيل بدائع هذا الدين الحنيف ولا يعد نفسه من القاصرين المقصرين « ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله . »

أي مادة غزيرة وقريحة سامية وعالمية شاملة يجب ان يتصف بها الانسان لاجل ان يمكنه فهم وتفهيم هذه النواميس الازلية الابدية التى تدور عليها الادوار وتمر بها القرون والاعصار وهي هي كما كانت نواميس يزيدها القدم شباباً ويلبسها الزمان من الجدة جلباباً وتودعها الاجيال للاجيال ولا يدركها الا الذين انار الله بصائرهم بنور العرفان وأطلع في سماء افكارهم شموس التبيان : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . »

انا نقول بتمام الحرية وكمال الاستقلال والعلم نصيرنا والعقل ظهيرنا ان الاسلام هو سنام الكمال الاعلى الذي خلق الانسان وأعد للرقي

اليه والذي لاجله وضعت فيه غريزة الدأب والبحث عليه . بل الاسلام هو أمنية النفس البشرية التى فطرت لتنشدها وتحسسها كاعظم غاية لها واسمى نقطة لكمالها . فهي لا تفتأ تتطور فى كل الاطوار وتدور مع كل الادوار بحثاً عن تلك الضالة العزيزة المنال والتى فى وجودها راحة لها من البلبال ومقنع لها من كل الآمال والاميال .

نعم الاسلام هو الغاية الكمالية التى مات دون نوالها الحكماء وفنى قبل اكتناهها العلماء . الاسلام هو القانون الاقوم والناموس الاعظم الذى منّ الله به على هـذا النوع الضعيف ليقيم أود حالتيه ويغنم به سعادة حياتيه ويجعله الركن الذى يعتمد عليه ويهرع فى الشدائد اليه . منّ به على هـذا النوع خاتمة للاديان وتاجاً على هامة الزمان وفى الحين الذى تم فيه نمو عقل الانسان ليكون حجة من الله على عبـاده تنطق بالحق وتصدع بالعدل وترينا طريق الهدى بالحجة لكي لا يكون للانسان بعد ان بلغ رشده تعلة فى رفضه ولا قوة فى دحضه .

الاسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها حتى صارت نصوصه فى هذا القرن اوضح من الضياء وأسهل جولاناً فى العقل من الشعاع فى الماء . فلا قاعدة دلت عليها التجارب ، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر فى ترقية الانسان وتحسين بناء العمران الا وهى صدى صوت آية قرآنية او حديث من الاحاديث النبوية حتى يتخيل للرائى ان كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة

الارضية فى سبيل رفعة شأن الانسانية لا يقصد به الا اقامة الحجج التجريبية على صحة قواعدالديانة الاسلامية : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . »

بناء على ما قدمنا فلن يمكن صدم تيار الاسلام بأي وسيلة كانت ، لانه لا فرق بين صدمه وبين صدم المدنية الانسانية والترقيات النفسية وبين محو النصوص العلمية العملية ورد الناس الى الحالة الأولية . وهذا أمر لن يقدر عليه مجموع الانس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً : « يريدون أن يطفؤا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره . »

فلنشرع الآن بعون الله تعالى فى اثبات ان كل ما نقرأه من قواعد المدنية العصرية ليس بالنسبة الى قواعد الديانة الاسلامية الا كشعاع من شمس او قطرة من بحر وأسهل سبيل يوصلنا الى هذا الغرض هو ان نتكلم على اسس المدنية الحالية ثم نثبت انها بعض اسس الديانة المحمدية بطريقة واضحة جلية فنقول :

ما هو الدين ؟

ان لفظة دين قديمة جداً كقدم مسماها وشائعة بين كل الطوائف البشرية سواء حاضرها وباديها وحشيها ومتمدنها ولكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيقي الذى جاءت به الشرائع الالهية والذى ينطبق على رحمة الخالق وعنايته . ومن يتدبر التاريخ ير الشعوب المختلفة قد تطوّرت اطواراً كثيرة فى فهم معنى هـذه الكلمة على حسب تطوّر العقل البشرى فى فهم المعقولات .

كان الاقدمون لا يعرفون الدين الا انه مجموع احتفالات عمومية تضحى فيها الحيوانات او أسرى الحروب ارضاء لمعبوداتهم وتسكيناً لغضبهم . ثم لمـا ترقت المدارك الانسانية ونمت فيها الغريزة العقلية بطروّ العلوم والفنون أخـذ معنى الدين يتجلى شيئاً فشيئاً ويقرب رويداً رويداً من المعنى المراد لله والذى جاءت الاديان تأمر الناس بفهمه كذلك .

نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للاسلام يجب علينا اوّلا أن نتكلم على ما يفهمه علماء اوروبا من هذه اللفظة

بعد ان فحصوا العلوم فحصاً وأوسعوا الكون بحثاً عن نواميسه وتنقيراً عن قوانينه لنجعل هذا من بعض الادلة الحسية على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العالم فى سبيل فهم الحقائق هي تقرّب ظاهر الى الاسلام فنقول : ان علماء اوروبا بعد ان دخلوا فى كل دور يمكن أن يدخله الانسان المعرض لكل أصناف الفتن العلمية (ومن يطالع تاريخ العلم من أول سقراط للآن ير العجب) عادوا الآن حيث الهدوّ شامل وبدر العلوم كامل فاعترفوا عن بينة بان لهـذا الكون خالقاً قادراً حكيماً متصفاً بكل صفات الكمال ومنزهاً عن أقل ما يشعر بالنقص . وانه جل سلطانه وضع الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر اليه بروية أن يستنتج منه تلك الصفات العليا استنتاجاً محسوساً وأن يتعلم منها أموراً يغنى الجرى عليها مع قلتها وسهولة فهمها عن ألوف القواعد والتعاليم التى كانت تلقى على الناس فيحنون رؤسهم خضوعاً لها ولكن على غير فهم لحكمتها ونتائجها . ثم رأوا بالاستقراء لنظام الكون ونواميسه ان الخالق جل شأنه يتعالى علواً كبيراً عن الاحتياج لكائن من صنع يده بل هو غنى بذاته عن كل ما عداه . ثم قالوا ان غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتماماً يدل على عظيم رحمته وسعة رأفته واقل نظرة فى الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية :

انظر الى اصناف النباتات والحيوانات من أدناها الى اعلاها تر آثار

هذه المرحمة الكبرى تجلي للانسان تجلياً يبعثه رغم انفه الى محبة ذلك الخالق العظيم . فانه جل سلطانه لم يترك كائناً من الكائنات الا ووهب له مايقيم لهأودحياته ويحفظ بقاءه وما يدفع عنه البوائق والجوائح الامايستلزمه نظام الكون ويكون فى حصوله اثر مرحمة اسمى ورأفة اعلى بمجموع هـذا الوجود . ثم ان الهاً هذا شأنه لا يحمل الانسان من العبادة الا ما فيه حكمة بالغة وفائدة عظمى لذات الشخص و بني نوعه وسائر اجزاء الطبيعة . لان مجرد التدبر فى جميع انواع الكائنات يدلنا دلالة واضحة على أن خالقها لم يخلقها وهو مريد افسادها وملاشاتها بل خلقها وأراد اصلاحها وبقاءها ومما يدل على ذلك ايداعه فيها القابلية للترقى والتدرج لدرجة حددت في سابق علمه . ولما كان الانسان لا يفترق في النسبة الى الله عن سائر الكائنات الاخرى بل يزيد عليها في كونه نهاية الابداع وغاية الاختراع فيكون بالاولى خاضعاً لناموس الرقي والتدرج وقابلاً له اكثر من سواه .

هذا هو الواقع فان من يتأمل فى مبلغ الرقى الذي حصله الانسان من اول نشأته الى الآن يتحقق ان الخالق جل جلاله وهبه من الخصائص ما يستمر به ترقيه وتدرجه الى نقطة لم يصل اليها الفكر البشري للآن . ثم قالوا وحيث ان افعال الله مجردة عن العبث والتناقض فيجب ان تكون تلك العبادة المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة في عموم الكون وملائمة للاميال والاحساسات المغروسة فى

جبلة النوع الانساني . فاستناداً على هذه البداءة العلمية التي لا يصح الامتراء فيها بنى طائفة عظيمة من علماء اوروبا ديانتهم الطبيعية واليك ما قاله في هذا الموضوع احد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير (چول سيمون) قال : « انا نؤدي فى اثناء هذه الحياة الواجب الذي رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته وعندما ينتهى بقاؤنا فهو اما أن يثيبنا واما أن يعاقبنا . » ثم ذكر الاسباب التى تقتضى الاثابة والعقوبة فقال : « أما الامر الذي يقتضي المثوبة الحسنة فهو طاعة الانسان لقانونه الخاص وعمله للخير . أما قانون الانسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه . ثم هي محبة وخدمة اخوانه ، ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ما هى الطريقة التي يعبد بها الانسان ربه ؟ ان أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب والعمل والاخلاص هي نفس العبادة ونفس الصلاة . والاخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى . هذه هي الديانة الطبيعية ، وهذه هى العبادة الطبيعية . كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . أما اصوله فهي الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شيء ولا يغيره شيء . خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة ، ووجود حياة أخرى تؤدي لنا كل وعود هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الأوفى . هذا هو اعتقادنا . فأما صلاتنا فهي ان يكون قلبنا مملوءاً بمحبة الله تعالى ومحبة الانسان ، وأن تكون لنا ارادة ثابتة فى اداء الواجب وخدمة ارادة الله تعالى بعمل الخير والبر . » اهـ

وهنا نستدرك فنقول ان اصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجسمية مطلقاً كما يؤخذ ذلك من كلام (چول سيمون) في غير هذا الموضع . الا انهم فقط لا يحتفلون بعبادة جسمية لا يكون من نتيجتها فائدة ادبية تذكر . فهم يريدون ان تكون معتبرة وسائل لاحياء القلوب وتطهيرها من ادناسها لا اغراضاً قائمة بنفسها مجردة عن كل غاية . قال (كن) الفيلسوف الطائر الصيت : « العبادة الخارجية لا تكون رديئة الا اذا اعتبرت اغراضاً لا وسائل ، وهي يمكن ان تكون نافعة مفيدة اذا لم تعتبر الا وسيلة لايقاظ وتقوية الاحساسات الفاضلة في النفس البشرية . »

اما نحن فنلخص من كل هذه الاقاويل أربعة أمور مهمة هى مذهب علماء اوروبا فى الدين وهى : (اولا) الاعتقاد بأن الله غنى عنا وعن اعمالنا وان مانعمله من الخير لانتيجة له الا منفعتنا الخاصة . (ثانياً) ان الله تعالى رحيم بالانسان ويود صلاحه ولا يكلفه بالعبادة الا لفائدة نفسه . (ثالثاً) ان العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشرية لا ان تعارضها وتسعى في ملاشاتها . (رابعاً) العبادة الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لااغراضاً مطلوبة لذاتها .

نقول ان هذه الاربعة أمور التى لم يبلغها العقل البشرى الا بعد ان شابت ناصية الكرة الارضية وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون

بها عجباً ويميلون طرباً ليست هي الا شعاعاً من الديانة الاسلامية وقطرة من بحرها الزاخر . ونحن لاجل زيادة الاقناع نأتي هنا على النصوص الشريفة التي تنطبق على هذه الامور الاربعة مرتبة على حسبها فنقول : (اولاً) قال تعالى : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه . ان الله لغنيّ عن العالمين . » (ثانياً) قال الله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر. » وقال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون . » (ثالثاً) قال الله تعالى : « لايكلف الله نفساً الا وسعها . » وقال تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم . » وقال تعالى : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً . » (رابعاً) قال عليه الصلاة والسلام : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعداً . » وقال عليه الصلاة والسلام : « كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش . »

هذه هي عقيدتنا في فهم الدين . وقد رأيت انها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق . ولما كانت مطاعن علماء اوروبا على الاديان لم تتوجه اليها غالباً الا من هذه الوجهة الرئيسية التي ينبني عليها سائر قواعد الدين فقد حق لنا ان نادي بأعلى صوتنا ان الاسلام أعلى وأسمى من ان يناله سهم من سهام ذلك التنديد المشين وأكبر وأجل من ان يلحقه طعن الطاعنين .

هذه الاربعة قواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية اركاناً تنبنى عليها كل قاعدة قانونية يكون في العمل بها تقدم الانسان الى النقطة الكمالية التي أعد هذا النوع لبلوغها . ولما كان العلم هو المنوط اجماعاً بتحسس تلك القواعد المرقية للانسانية فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل اليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية في الجري على سنتها رضاء الخالق والقيام بطاعته .

أما المرويات القديمة والاساطير التى مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمتها من قواعد الدين فقد صدفوا عنها وهجروها هجراً كلياً . قال (كن) : « الديانة الحقيقية الوحيدة لاتحتوي الا على قوانين أعنى قواعد قابلة للتطبيق نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية » كأن (كن) يريد ان يذكر المسلمين بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . »

الناموس الاعظم للمدنية

ان من يتدبر في تفاصيل تاريخ الامم من يوم تكونها الى الآن لا يرى فيها الا اهوالاً تشيب الولدان وترعد فرائص الانسان ! يرى حروباً دموية ، وفتناً اجتماعية ، ومصائب عائلية ، ومفاسد اخلاقية ! يرى الاطماع والشهوات البهيمية لابسة لباس النفاق والوحشية. تسفك الدماء ، وتيتم الابناء ، وتهدم كل بنـاء ! يرى رجالاً رفعتهم الصدف الوقتية الى مقاوم الشرف الوهمية جعلوا ممن دونهم عبيـداً يمتصون دماءهم ويبتزون شراءهم لاطفاء جمرة شرتهم واشباع بطن نهمتهم ! اللـهم الا بعض مستثنيات من السعادة كانت تشرق في بعض الامم ثم تختفي ليحل محلها الشقاء والكمد .

هكذا ترى تاريخ الانسان كله مملوءاً بالاحن والمحن مفعماً بالكدر والحزن مما يكرّه اليك بني نوعك ويحبب اليك اتهام نفسك . ولكنك لو علوت قليلاً عن مثار هذه القلاقل والزلازل ونظرت الى النوع البشري من وجهـة أخرى لرأيت بعينك ان هناك ناموساً ثابتاً يبعث الانسان من خلال هذه المضانك الاجتماعية والارتباكات العمومية الى

التقدم نحو الأمام رغماً عما يساوره فى جميع جهاته من هذه النوائب المصمية . ثم لو علوت عن مركزك هذا الى اسمى منه لتحققت ان تلك الارتباكات كلها هي نواميس ثانوية تابعة لذلك الناموس الذي شاهدته أولاً وان تلك الارتباكات والمضانك هي افاعيلها وآثارها تنفعل فى العالم لكى يرتج فى بعضه ارتجاجاً يفصل عنه خبث الاخلاق البهيمية ودرن النزغات الوهمية . هذا امر لا مشاحة فيه خصوصاً فى عصرنا الحاضر . ويمكنك أن تهتدي اليه بقليل من الاستقراء فانك لو تفحصت في كل نازلة مهمة ألمت بالعالم فى عصر من عصور التاريخ لرأيت انها جلبت معها فائدة عظمى لو وزنت مع المصيبة التى سبقتها لرجحت عليها رجحاناً يقلل من تأثرك من تلك المصيبة بل يرضيك عنها رغماً .

نحن في هذا الكتاب الوجيز لا نستطيع ان ندرس وقائع النواميس الاجتماعية التى بتأثير أفاعيلها على النوع الانساني خرج من ظلم الجهالة والوحشية الى باحة النور والمدنية . كلا . فهذه امور تعوزنا لكثير من البحث والتدقيق يخرجنا عن نيتنا الاولى من جعل كتابنا هذا صغير الحجم شاملاً لاطراف موضوعنا . ولكن ذلك لايمنعنا من ان نلم بسر هذا التدافع الاجتماعى الماماً يسهل علينا بحثنا وينير لنا المسائل الاجتماعية الكبرى بطريقة ترينا الحقائق مجسمة أمام اعيننا لتكون حجة التطبيق اكثر اقناعاً فنقول :

ان أول ضرورة شعر بها الانسان بعد مقومات حياته الشخصية هي ضرورة الاجتماع على طائفة من بني نوعه . فكنت تراه من جهة ذاته على تمـام الحرية لا يقيده شيء من الاشياء ، ومن جهة اخرى ضعيفاً عاجزاً لدرجة تلزمه ان يضحي بعضاً من هذه الحرية فى سبيل اقامة أود حياته هرباً من فناء عاجل ، لهذا اجمع علماء العمران على ان الانسان مطبوع على الاجتماع رغم انفه لأنه من مقومات حياته التى لا يمكنه ان يستغني عنها كما لا يمكنه ان يستغني عن المأوى والملجأ .

بين هــذه الحرية المطلقة التى يشعر بها الانسان في نفسه وبين احتياجه لأن ينضم الى جمعية من بني نوعه قامت كل الفتن التى يحدثنا بها التاريخ وترويها لنا السير كما بنى عليها كل ما شاهدته وتشاهده من التفاعل فى اجزاء النوع البشري جرياً وراء الغاية المتمناة . وعلى هذا فحوادث التاريخ كله فى الامم جمعاء مبنية على تحديد قواعد الحرية المعتدلة التى تليق بمقام النوع الانسانى ، وعلى تحديد السلطة التى تستلزمها حالة الاجتماع ولم يزل النوع الانسانى للآن هدفاً للتدافع الهـائل بين اجزائه طلباً للاهتداء الى الحد الفاصل بين هاتين القاعدتين . الا ان هذين القرنين الاخيرين يمتازان عن سابقيهما بشدة القرب من ذلك الحد المعتدل بفضل الدماء الغزيرة التى سمح بها محبو الحرية فى اوروبا في القرن الفارط مما لم يسبق له مثيل فى عصر من العصور السابقة . قال علماء العمران : وهذه الحرية التى نالتها الامم الاوروبية في هذا

القرن الاخير هي سبب كل الرقى الذى نرى آثاره الآن على ربوع اوروبا .

ما هى تلك الحرية التي جاهدت اوروبا لنوالها جهاد الابطال وبذلت لتحقيقها كل مرتخص وغال ؟ هل هي بعيدة عنا بعد السماء من الارض او بعد اجتهاد اوروبا من خمول الشرق ؟ كلا . هي بين ايدينا ولكننا غافلون عنها كغفلة الغنى الأبله عما بين يديه من الكنوز التي لو صادفت مالكاً كفؤاً لساد بها على غيره ولأطلق الالسنة بالثناء على خيره . نعم هي بين ايدينا ولو شئنا لعملنا بها وجرينا على سنتها ونحن آمنون مطمئنون لا نتكلف فى سبيل تأييدها بذل المهج ولا اقتحام الرهج ، بل هي من محفوظاتنا عن ظهر قلب ولا نتكلف الا فهمها على حقيقتها ببذل قليل من التدبر . لو فعلنا ذلك حصلنا الغرب في قليل من الزمن فلا يسعه وقت ذلك الا ان يندهش من سرعة رقينا كما اندهشت دولتا الرومان والفرس من سرعة انقلاب حالة العرب من الوحشية الى المدنية العليا في بضع وعشرين سنة .

ما هي تلك الحرية التى يقول عنها المسيو (د . فيو) : « الحرية هي أفضل سعادات الدنيا » والتى يقول عنها (باشيا) : « الحرية هى أصل كل الرقى الانسانى » والتى يترنم بحسنها (فيكتورهوجو) ويقول : « يمكن أن يقال ان الحرية هي الهواء الذى يجب أن تستنشقه النفس الانسانية » هل هذه الحرية هي الانفراط الكلي من كل قيد والانخلاع المطلق من

كل رابط ؟ كلا . فتلك حرية الحيوانات التى لانحسدهم عليها : بل الحرية التى يتوق اليها فلاسفة الامم هى الحرية المعتدلة التى تسمح للانسان باستعمال سائر خصائصه بدون أن يخشى مسيطراً عليه الا اذا تعدى حدوده المحددة له بواسطة الشريعة العادلة ، وكان تعديه ذلك مضراً ببعض أعضاء الجمعية التى هو فرد منها .

هذه هي الحرية التى يتلمسها عقلاء الامم من يوم أن تسنموا هامة هذه الكرة الارضية وها هم لم يزالوا للآن في جهادهم الاول ولو كانت أشكاله تغيرت عما كانت عليه أيام كانت القنا والقواضب هي صاحبة القول الفصل والكلمة العليا . ونحن هنا قبل أن نتكلم عليها لاجل أن نطبقها على قواعد الديانة الاسلامية يجب علينا أن نتكلم قليلا على جهاد النوع الانسانى وراءها من منذ بدء الخليقة لنستطيع أن نقف على تفاصيل المسألة من اولها الى آخرها . ولنستدل على القواعد الاساسية التى قامت عليها حرية الامم المتمدنة فنقول :

جهاد الانسان لنوال الحرية

الانسان حر بطبعه ولا يحتاج الى مرشد يرشده الى الحرية لانها من الاحساسات الشديدة التأثير عليه اللهم الا اذا توصل الى تعكير وجدانه بالخزعبلات المطفئة لنور البصيرة كما حصل فى كثير من الامم ،

ولكن لما كانت الحرية المطلقة أى حرية الحيوانات تبطل عمل كثير من الخصائص المودعة فى الانسان والتى لا تتم الا بالاجتماع رضخ الانسان لان يضحى قليلا من تلك الحرية فى سبيل ممارسته تلك الخصائص .من هنا نشأت السلطة مع ما استلزمته من المناسبات التى أخرجت تلك السلطة عن حدودها فى كثير من الاحوال . ذلك انه لما كان من ضمن أميال الانسان المودعة فى جبلته حب التسلط والعلو على سواه وجدت بعض النفوس مساغاً الى تحقيق أمانيها من التسلط المطلق ومجازاً الى متابعة هواها من التعالى الافراطي على الغير وتذرعت لذلك بكل الذرائع الممكنة .

ولما كانت وسائط التسلط لا تنجح الا اذا واجهت الانسان من اشد احساساته تسلطاً عليه وجد محبو القهر والجبروت ان انجع تلك الطرق هي التأثير على الانسان من طريق الدين وكان الجري على هذه الطريقة سبباً فى تحريف اكثر الاديان واخراجها عن نصوصها الاصلية طمعاً فى امتلاك أزمة القلوب والسيطرة على العقول . فكانوا يتربصون لكل حركة يأخذها العقل طلباً للتخلص من اوهاقه القاتلة فيبتكرون له من انواع التخرصات الدينيـة ما يقف أمامه ولو حيناً من الزمان مندهشاً مذعوراً ، حتى اذا صده ما يراه أمامه وأخذ يتحرك يمنة او يسرة أتوا اليه فى الحال بما يثبط من تلك الحركة او يمنعها من الانتشار . وهكذا دام الحال قروناً كثيرة جداً فى خلالها كانت كلمة اولئك

المسيطرين هي الكلمة العليا وأمرهم هو الامر النافذ حتى طرأ على العالم من تأثير نواميس الرقي ما يفكهم نوعاً ما من ربقة ذلك الاستعباد المطلق لرجال الدين فنشأت سلطتان سلطة دينية وأخرى سياسية فحصل بينهما من التدافع والتجالد ما لا تكفى المجلدات لتبيين اهواله حتى توصلت بعض الشعوب المرتقية فى هذين القرنين الى التخلص من نير السلطة الدينية كما افتكت نفسها ايضاً من غلو السلطة السياسية ففرحت تلك الشعوب بما حصلته من الحرية بعد ماشابت ناصية الغبراء وسترت مشيبها بالدماء فأخذ علماؤها يؤلفون الاسفار الضخام ترنماً بتلك النعم الجزيلة وطفقوا يشنون غارة شعواء على كل الاديان بما لا نستطيع اثباته هنا وتغالوا فانذروا سائرها بالزوال ولم يعلموا ان كل ما نالوه بعد التى واللتيا ليس هو الا تقرباً الى الاسلام الذي اشرق نوره على العالم يوم كانت اوروبا فى ظلم الجهالة الحالكة .

جاء الاسـلام فى وقت كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين هما دولة الفرس ودولة الرومان . أما الاولى فكانت القلاقل الداخلية والخـارجية آخـذة فى زعزعة بنيانها وتقويض جدرانها . وأما الثانية فكانت لم تزل على جانب عظيم من عظمتها الاولى وكانت لم تبرح تزلزل الامم بسطوتها وتدوّخ البلاد بقوتها ، وكان فيها شطر عظيم من مدنيتها السـابقة اي مدنيتها التى يقول عنها (لاروس) فى دائرة معارفه ما يأتى : « ما ذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال ؟

كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين . أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعيــة فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص . أما وطنيتها فكانت مكتسية لباس الوحشية فكان لا يرى فيها الا شرهاً مفرطاً للمال وحقداً على الاجنبي وضياعاً لاحساس الشفقة الانسانية . أما العظمة فى روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن اعمال السوط والسيف في العالم والحكم على اسرى الحروب بالتعذيب اوبالاسر وعلى الاطفال والشيوخ بجرّ عربات النصر . »

نحن لم ننقل هذه المقولة فى هذه المناسبة الا لنري القارىء مبلغ المدنية فى ذلك الوقت عند اعظم امم الارض ليتحقق ان كل ما سيراه من اساسات الاسلام الطاهرة ليس بالامر المستعار من أية أمة من الامم الاخرى كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين . ولن نكتفي بهذا ، بل سنثبت ذلك من اقوال اساطين علماء اوروبا انفسهم .

قلنا ان الامم المتمدنة نالت من الحرية في هذا العصر ما بنت عليه كل رقيها العقلي والاخلاقي مما حدا باكثر علمائها أن يدّعوا أن تلك الحرية منافية لنصوص الديانات كافة كما اسلفنا ذلك ، وبنوا على فكرتهم هذه وجوب زوالها كلها فى مستقبل قريب وحلول العلم محلها في قيادة الانسان الى سعادته . أما نحن فسنبرهن بالأدلة الحسية على ان الاسلام فضلاً عن كونه لا يعارض تلك الحرية التى رفعت الغرب من وهدته

فانه يحتوي على قسط منها لا تقارن به حريات العالم على انواعها الا كما يقارن الخيال بالحقيقة .

ان حرية العالم المتمدن التى نشاهدها الآن على ما بها من عظم وجـلالة لم تتأيد دعائمها ولم تثبت وطائدها الا بواسطة ثلاث حريات بسيطة اخرى كانت بالنسبة لهـا كأعمدة ثلاثة بالنسبة لبناء فاخر . أما هذه الثلاث حريات الأولية فهي : (أولاً) حرية النفس . (ثانياً) حرية العقل . (ثالثاً) حرية العلم . ولنتكلم على كل منها بوجه الاجمال مع اثبات انها بعض قواعد الاسلام فنقول :

١

حرية النفس

ان أكبر وسيلة تذرع بها مذللو النوع الانسانى للسيطرة والقهر هي حرمانهم النفوس البشرية من حقوقها الطبيعية وتجريدها من أهم خصائصها الفطرية وجعل تلك الحقوق والخصائص تحت تصرفهم الخاص يوجهونها الى حيث شاء هواهم ووافق كبرياؤهم . فكانت كلمة (اعتقد وانت اعمى) كما قال (لاروس) هى القاعدة المتبعة والناموس السائد على كل فرد من افراد الأمم ، وكانوا اذا آنسوا من احد من الناس بارقة التحرك الى التفصى من اوثاقه الثقيلة أسرعوا بالحكم عليه بالمروق من

الجمعية القدسية وجعلوه طعمة للنيران أو اذاقوه من العذاب مايقشعر له جلد الحيوان .

انتحلوا لانفسهم حق الوصاية على النوع البشري وكلفوا انفسهم تربية صغاره فنقشوا فى مخيلاتهم من التعاليم والقواعد ما يجعلهم اذاشبوا آلات صماء فى ايديهم يستعملونها كيف شاؤا وفى أي غرض ارادوا . غرسوا فى اذهانهم أن السعادة والشقاوة الابديتين معقودتان بارادتهم ومرتبطتان بمشيئتهم « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن . » فنشأ الناس طبقاً للقالب الذى صبهم فيه قادتهم وكانوا كلما تحركت ضمائرهم وتململت أنفسهم ناداهم مما انطبع فى سرائرهم من تلك التعاليم مناد يقول لهم : « كلا انه لا انفس لكم ولا ضمائر . ما عليكم الا أن تطيعوا طاعة عمياء ! »

من هنا ماتت الحرية النفسية ومات ما يبنى عليها من حرية المدارك المربيـة لانواع الملكات فلم يسع الطبيعة البشرية الا أن أقامت الحجة عليها فنغلت النيات ودويت الصدور وتشعبت الهواجس فى النفوس وافعوعمت الافئدة بالأضغان والاحن ووقعت الجمعيات فى حيص بيص وكان النـاس فيها كقطع الخشب في المرجل تغلى على تنور يصعدها وينزلهـا غليان الصدور واضطرابات الامور فنشأت الثورات الدموية بفظائعها التى لا تنطبق على احساس ولا تدخل تحت قياس حتى كان ما كان مما يعلمه كل انسان لديه قليل من علم العمران .

فى أثناء تلك الظلم الحالكة وقبل تلك القلاقل المزعجة كان خالق الانسان موجهاً عنايته السامية الى تربية الأمة العربية فى وسط الشعاب والصخور على مقتضى قواعد الحكمة العظمى التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ليجعل منها امة تقيم الحجة على لسان الجبار الأعلى وتؤدب الطاغين بيد القهار الأقوى حتى اذا ثابت الأمم الى السكون بعد ان تنال من المدنية ما قدر لها فى العلم المصون وتاقت الى فهم ما يدعيه المسلمون من ان دينهم هو الكنز المكنون والسر الذى قامت به السموات والارضون وجدوا ان كل ما وصلوا اليه بعد بذل المهج واقتحام الرهج ليس الا صورة منعكسة من تلك التعاليم الالهية : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . »

فهلم ننظر الآن فيما يقوله الاسـلام فى حرية النفس لنثبت لقادة الحكمة ونصراء النوع الانسانى ان كل النظريات التى يفتخر بها علماء هذا القرن ما هى الا صدى الصوت الذى رن بين شعاب مكة والمدينة قبل زهاء اربعة عشر قرناً فنقول : جاء الاسلام واضعاً لاساس المساواة بقوله تعـالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . » وقوله عليه الصلاة والسلام : « ان الله قد أذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لان الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم . »

فانمحى بذلك كل فضل يمكن أن يدعى باصالة المحتد أو بوفرة الغنى

او بالإنتساب الى قبيلة الى غير ذلك من دواعى الامتياز وبواعث الانحياز ، وجعل التمايز بالمزايا والاعمال لا بالفخفخة والاقوال فقال تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم . » وقرر أن التقوى ليست من الامورالتى يمكن للانسان ان يحكم عليها بمجرد النظر الى افعال الرجل في الطاعات واجتهاده فى اصناف العبادات فربما ذهب ذلك كله هباء منثوراً لعقيدة رسخت فى فؤاد فاعلها لا يطلع عليها غيرالله تعالى . قال عز وجل : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن . » وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « وان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها . وان الرجل ليعمل بعمل اهل النار حتى لا يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها . »

قرر الاسلام ان قبول الاعمال الصالحة هو من خصائص الله تعالى فليس للعبد أن يحكم على تقوى يراها فى غيره بالقبول او الرد بل يجب عليه ان يدع الحكم فيها للخالق جل شأنه حتى لو بلغت تلك التقوى بصاحبها الى درجة أعلته عن سائر اصناف الخلق . قال عليه الصلاة والسلام : « دعوا المحدثين من أمتى (اي الذين تحدثهم الملائكة) لا تحكموا لهم بجنة ولا بنار حتى يكون الله هو الذي يقضي بينهم يوم القيامة . » وقال عليه الصلاة والسلام : « ويل للمتألين

من أمتي الذين يقولون هذا للجنة وهذا للنار . »

لم يعين الاسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بامتيازات خاصة تعلو بهم أمام القانون الالهي عن مرتبة اقل المسلمين حيثية وجاهاً ، بل فتح للكل باب الفضل الربانى وقرر ان ذلك الباب مفتوح للكافة على السواء يلجه من اراد الولوج بدون احتياج ولا عوز لمرشد غير كتاب الله وسنة رسوله . ولم يكتف بذلك بل حذر كافة متبعيه من الوقوع فى أشراك من يدعون الاشقاء والاسعاد او ينتحلون لانفسهم حقاً ليس لسائر الافراد . قال عليه الصلاة والسلام : « من قال أنا عالم فهو جاهل . » وقال عليه الصلاة والسلام : « أخوف ما اخاف على أمتي رجل يتأول القرآن يضعه فى غير مواضعه ورجل يدعى انه احق بهذا الامر من غيره . »

أكد الاسلام لمتبعيه انه لن يغنى عن المرء يوم الحساب غير عمله ولن ينجيه من غائلة العذاب غير مكتسبات نفسه فلا يجديه الانتساب الى عظيم او الاعتزاء الى أب فخيم . قال الله تعالى : « وأن ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى . » وقال جل شأنه : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . » وقال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم : « يا عباس ويا صفيــة عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد اني لست أغنى عنكم من الله شيئاً . ان لى عملي ولكم عملكم . » لهذا وردت الاوامر الالهية موجهــة الى سائر الافراد على السواء ومكلفة اصغر عضو من

اعضاء الجمعية الانسانية بما كلفت به اكبر كبير فيها . قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته . »

هذه القواعد رفعت نفوس المسلمين عن ذلة الاسر لنفس بشرية اخرى وسمت بها عن التقيد باشارة غيرها لعلمها بانها هى التى ستدان وحدها عما جنت والمسؤولة عما كسبت وانه لن تغنى عنها نفس مثالها مهما علت وسمت .

بمثل هـذه الاساسات تتأسس روابط المؤاخاة وتتأكد عرى المساواة ولا يكون السواد الاعظم من الناس مقودين الى طائفة قليـلة منهم يسيرونهم كيف يشاؤون ويوجهونهم الى حيث يريدون . نعم بمثل هذه القواعد تسود المساواة . أتدري ما نتائج المساواة ؟ المساواة هى مبدأ أولىّ لمعرفة الحقوق والواجبات واعظم مؤيد للعدالة والحرية بين سائر الافراد . المساواة هى الفاروق الاكبر بين العـدالة الحقة وبين العدالة الوهمية التى تنخر عظام الامم وتمتص دم حياتها . قال نابليون : « المساواة هي ينبوع كل عدالة سواء كانت بين الشعوب او بين الافراد . » وقال الفيلسوف (كوندرسيه) : « المساواة الطبيعيـة لبنى الانسان هي القاعدة الاولى لمعرفتهم بحقوقهم وهي اساس كل الاخلاق الحميدة . »

ونحن لا نود أن نختم مقالنا هذا حتى نثبت ان المساواة التى تتمتع بها الشعوب المتمدنة الآن ليست بقديمـة العهد بل هي بنت الثورات

الدموية التي حصلت في اواخر القرن الماضى . قال الفيلسوف (فرنك) :
« ان المساواة المدنية التي تأسست منذ نصف قرن عند بعض أمم اوروبا آخذة فى الانتشار عند الامم الاخرى تدريجاً . » ونحن أما يحق لنا ان نتلو قوله تعالى : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . »

٢

حرية العقل

ان اكبر خصائص الانسان شأناً وأعظمها أثراً هي قوته العقلية . قلنا ان الانسان لم يخلق كما خلق الحيوان مطبوعاً على عمل ما يقيم أود حياته بل خلق مجرداً عن كل علم بما يستلزمه امر بقائه . الا انه منح فى مقابل تلك الجهالة القوة العقلية التي تكبر وتنمو بزيادة المعلومات فتغنى الانسان عن كل سوق طبيعى وترفعه تدريجاً من الوحشية المظلمة الى المدنية النيرة . ولكن منيت هذه الخصيصة الكبرى مثل سائر الخصائص العظيمة الاخرى لحكمة يعلمها الله تعالى بمن يسيطر عليها ويمنعها حيناً ما من تأدية وظيفتها على حسب قانونها المرسوم لها من القدم .

لم يتربص مذللو النوع الانسانى لمواهب الانسان اكثرمن تربصهم لهذه الموهبة الكبرى لعلمهم انها السلاح الحاد الذي لو جرد من غمده لم تقف أمامه جيوش الاوهام ولا ظلمات الاحلام فشددوا النكير عليها تشديداً حرم الانسانيـة من اعظم خصائصها حتى صرحوا بأن استعماله فى فهم مايقولون يفضي الى الالحاد . فوقع الناس فى ظلمة من الجهالة أفضت بهم الى حالة من الوحشية يحدثنا التاريخ بها وهو خجل من نفسه ناقم على امسه . كان هذا حال الامم فى الحين الذي كانت فيه اصول المدنية الحقة وحرية العقل يمليها الحكيم العليم على خاتم انبيائه محمد صلى الله عليه وسلم . فبينما كان المسيطرون على الامم يصيحون فى وجوه رعاياهم قائلين : « اطفئوا نور العقل . اطمسوا عين البصيرة ، فان الدين ينافي العقل . » كان رسول الحق يقول لمتبعيه واصحابه : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له . » وبينما كان اولئك القادة الغالون يقولون لمقهوريهم : « تواصوا ايها الناس بترك العقل جانباً فانه يغضب ربكم عليكم ويجلب سخطه اليكم . » كان صاحب المدنية الحقة صلى الله عليه وسلم يقول لاصحابه : « يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما امرتم به وما نهيتم عنه واعلموا انه ينجدكم عند ربكم . » الى آخر الحديث .

بهذه القواعد الالهيـة نال العقل حريته وتخلص من اوثاق كان يسف فيها ويتعثر فى اصفادها وصار هو المرشد الحقيقى للانسان وهي

الوظيفة التي خلقه لاجلها الملك الديان كما صار هو المميز الاكبر لافراد النوع الانساني فى الافضلية بعد أن كان المميز فيها العبادة الظاهرية والتقوى العضلية . قال عليه الصلاة والسلام : « لا يعجبنكم اسلام رجل حتى تنظروا ما ذا عقده عقله . »

ما ذا تفيد الانسان عبادته الظاهرية وافعاله العضوية بينما يكون هو بضعف عقله عرضة لكل انواع الافراط والتفريط ، يضع الامور فى غير مواضعها ، ويزن الأشياء بغير ميزانها فان كلف باداء وظيفة أساء استعمالها وأخل أعمالها لظنه الظلم عدلاً والعدل ظلماً ؟ ألسنا نرى كثيراً ممن يدعون الصلاح والتقوى صاروا جوائح أممهم وبوائق وطنهم بمحض ضعف عقولهم ؟ أتى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة واصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال : « ان الاحمق يصيب بجهله اكثر من فجور الفاجر . وانما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم . »

هذا هو مقدار تشريف الديانة الاسلامية للقوة العقلية . ولكن أتدري ماذا كانت نتيجة تحرير هذه القوة الجليلة عند الشعوب المتمدنة بعد ما نالوها ببيع الانفس رخيصة في سبيلها ؟ كانت نتيجته تمتعهم بكل ما تراه من عظمة مدنيتهم وشدة صولتهم وقوة شوكتهم . كانت نتيجته اهتداءهم الى طرق السعادة الدنيوية ومناهج الرفاهة المادية مما نراه

ونسمع به عنهم . قال (لاروس) : « اذا بحثنا بدون تغرض ولا وهم عن سبب الرقي الذي حصل في العالم المادي والفكري والاخلاقي من منذ طفولية الجمعيات البشرية الى ايامنا هذه فلا نراه الا تخلص العقل من الضغط عليه . » ونحن لانود أن نقفل باب هذا المبحث حتى نثبت للقارىء ان تحرير هذه القوة العقلية ليس ببعيد العهد عنا وانه لم يحصل الا بعد جهدجهيد وجلاد شديد . قال (لاروس) : « من منذ زمن الاصلاح لغاية الثورة الفرنساوية استمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محرري العقل وبين الضاغطين عليه من القدم . ولاجل الاعراض الكلي عن اساطير الماضى ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنساوية في ترميم ما تهدم من اركان الجمعية وصار تعليم النشأة الجديدة من أهم اشتغالاتها . » أما نحن فنقول : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . »

٣

حرية العلم

نسبة العلم الى القوة العقلية كنسبة الغذاء الى الهيئة الجسمية . فكما ان الجسم ينمو ويزيد بتمثيله انواع المواد الارضية كذلك القوة العقلية تكبر وترتقي بتمثيل النظريات العلمية والمعلومات الخارجية . لهذه العلة

أخذ مذللو النوع الانسـاني في التشنير على العلم والتنديد به وبمحبيه وحكموا انه الرجس الذى لا يصح أن يحام حوله او يقصد حوضه . قال لاروس في دائرة معارفه : « اما هم فيعتبرون ان العلم هو الشجرة الملعونة التى تقتل بأثمارها بني آدم . » نعم انهم تصدوا العلم تصدياً منع الناس عن ذكر اسمه والعروج على رسمه . وأخذوا يحرّفون فلسفة الاقدمين لتنطبق على أوهامهم وتتوافق مع أحلامهم حتى لم يبق منها الا هيكل مشوه يفرق العقل من رؤيته ويأنف من روايته .

زعموا ان لديهم العلم الذي لا جهل معه والكنز الذى لا يفتقر من جمعه . فحكموا ان كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجاً عن نطاق التحقيق ولا يقول به الا زنديق فيسرعون بالحكم عليه باقصى ما يتصوره العقل من العقوبة الجسمية مما يروع الجسور ويزع الصبور فأماتوا بهذه الطريقة عدداً عظيماً من الحكماء بتهمة انهم يسـعون فى زيادة مواد العلم ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر .

بهذه الوسائل الجبروتية سكنت عاطفة العلم ولم تفعل الا ان أقامت الحجة بلسان النواميس الحيوية وكانت تلك الحجة الناطقة هى سيادة الجهالة والاضاليل ورواج اسواق الاوهام والاباطيل حتى تغلبت الاميـال البهيمية على العواطف الانسـانية وعدا الاقوياء على الضعفاء فسلبوهم كل مزايا الحياة وحقوق الطبيعة ودام الهرج والمرج سائدين على أحوال الانسانية حتى بلغ السيل الزبى ولم يبق في القوس منزع . فجـاء دور

الثورات الداخلية والمقاتلات الدموية طلباً لتحرير العلم من ربقته الجهنمية وكان ما كان مما يعامه من ألم بتاريخ ذلك الزمان .

هكذا كان حال الامم قاطبة بينما كانت الحقائق الالهية تنزل من السموات العلى على سيد الملأ صلى الله عليه وسلم وتملى عليه أصول المدنية الحقيقية والعلم المطلق من قيود العبودية . جاءت الديانة الاسلامية فاكة اصفاد العلم ، حالة اغلال المعارف ، مقررة أنه من الظلم الشائن والاعتساف المهين تقييد العلم بقيد أو تحديده بحد فقال عليه الصلاة والسلام : « من قال ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول وما اوتيتم من العلم الا قليلاً »

صرح الاسلام عن لسان الحكيم العليم في قرآنه الكريم بان فهم حكمة الخالق في كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لا يتأتى الا بانارة الفكر بأنوار العلوم وتقويم النظر ببدائه المعقولات فقال تعالى : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . » ولم يكتف بهذا بل انذر المتكاسلين عن طلب العلم بسوء المنقلب وبالطبع على قلوبهم بَرين يؤديهم الى سوء العذاب فقال تعالى : « ولئن أتيتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . »

بمثل هذه الآيات البينات فتح الاسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة والمعارف الحقة وأراهم ان طلبها والسعي في اكتسابها هو من

أعظم ما يعبد به الخالق جل شأنه فقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل العبادة طلب العلم . » وقال عليه الصلاة والسلام : « نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة . »

لم يحصر الاسلام العلم فى بلد من البلدان ولا عند طائفة من بني الانسان بل أمرنا باصطياد شوارده حيث كانت وانى وجدت فقال عليه الصلاة والسلام : « اطلب العلم ولو بالصين » وقال عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت ممن هو مناف له اعتقاداً او مغاير له وجداناً . بل يكفيه باعثاً لاخذها كونها حكمة وكونها مما يرفع شأن الانسان ويزيل من جهالته . قال عليه الصلاة والسلام : « خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت . »

أتل آى القرآن الحكيم بتدبر وروية تر آيات صوادع تزع الانسان عن الغفلة عن العلم وتردعه عن الاغضاء عن نواطق الحكم . تر الجبار الاعلى ينادى عباده بلسان الرحمة قائلاً لهم : « انظروا ماذا فى السموات والارض . » ويبكت المقصرين في النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله « وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون . » وينذر الذين يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الاكوان الباعثة لمزايا العرفان بقوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى واضل سبيلا . قال رب لمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال

كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . »

هذا هو شأن حرية العلم في الاسلام . فهل وصل الاوّلون والآخرون الى اعلاء شأنه واكبار مقامه الى اكثر مما رأيت فى هذه الآيات التى تبعث الجماد فضلا عن الانسان ؟ وهل هذه الحرية العامية بعيدة العهد عن ابناء هذا العصر ؟ كلا . قال المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية فرنسا السابقين واكبر علمائها الكيماويين : ان العلم لم يتوصل الى نوال حرية الا من منذ مائتين وخمسين عاماً : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . »

الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعية

قد أتممنا الكلام بوجه الايجاز على الثلاثة أنواع من الحرية التى انبنى عليها كل الرقى الذي حصل في العالم المتمدن وأقمنا الادلة الحسية على ان كل تلك القواعد الاساسية الممدنة ليست الا شعاعاً من أنوار الديانة الاسلامية . ولكن هناك قواعد ثانوية أخرى هي نتائج تلك القواعد الرئيسية يجب علينا ان نتكلم عنها بوجه الايجاز حتى نرى لكل

من عنده مسكة من العقل تفسير قوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء . » فنقول والله المستعان :

الواجبات الشخصية

كل انسان يشعر بانه مكوّن من جوهرين متميزين عن بعضهما هما الجسم والروح . وانهما متحدان مع بعضهما على تغاير طبيعتهما اتحاداً غريباً بطريقة بها يتأثر احدهما اذا تأثر الآخر ولو كان نوعا التأثرين والمؤثرين متباينين جداً . وبناء على هذه النظرية اهتدى النوع الانساني الى ان مناط السعادة المتمناة هي حفظ هذين الجوهرين من ان يعتريهما ما يخل بوظائفهما فصار الاعتناء بكليهما ضربة لازب . قال لوك : « السعادة التى يمكن للانسان ان يتمتع بها فى هذه الدنيا تستلزم امرين اثنين : عقلاً صحيحاً وجسماً سليماً . هاتان النعمتان هما مستقر كل النعم الاخرى ويمكن ان يقال ان من توفرتا عنده لم يبق فى نفسه حاجة لغيرها . ومن حرم من احداها فلا يتصور ان يكون اسعد ممن يملكهما معاً مهما كان متمتعاً بمزايا أخرى لانهما السبب الاول للسعادة والشقاء . فالذى لا يكون مالكا لعقل سليم لا يهتدى عمره لطريق السعادة البين . والذى لا يكون جسمه صحيحاً لا يستطيع ان يخطو فى ذلك الطريق خطوات مهمة .»

اذا تقرر هذا نقول ان الانسان متنازع بين نوعين من المطالب وهما مطالب روحية تستلزمها سعادته النفسية ومطالب مادية تستوجبها سعادته الجسمية . اما المطالب النفسية فهى مجموع قواعد لا يقصد بها الا الحصول على صحة النفس البشرية وجعلها صالحة لتأدية وظائفها التى خلقت لها كما ان المطالب الجسمية هى مجموع قواعد لا يراد بها الا صحة الجثمان وتمكينه من تأدية وظيفته المطلوبة منه فى الحياة الدنيا . نقول ان ادراك ان السعادة الانسانية المتمناة هى اصلاح حالة النفس والجسم معاً وحفظ النسبة بين مطالبهما صارت الآن من البدائه التى لا يمترى فيها عند علماء العالم أجمع وقد سبقهم الاسلام الى تقريرها أيام كان الناس يبحثون عن السعادة فى سكنى الجبال وبالزهادة الكلية أو بالافراط فى الملاذ البدنية واطراح كل مزية فكرية . ولنتكلم على ذلك ببعض تفصيل فنقول :

مطالب النفس

ان من يتدبر بعين البصيرة فى احوال الخلق ير العجب العجاب فى تباين فطرهم وتخالف استعدادهم فيرى هذا معتدلاً وذاك مفرطاً وذلك مفرّطاً وبين هؤلاء درجات لا يحصيها الا خالقها وكلهم متباينون فى الاعمال والاعتقادات متخالفون فى الملكات حتى لا يمكن التوفيق

بين فؤادين كما لا يمكن الجمع بين ضدين . كل ذلك مع وحدتهم فى النوعية واشتراكهم فى الانسانية . لماذا يا ترى هذا التخالف الشديد بين افراد النوع الانسانى ؟ أليس هذا دليلاً محسوساً على ان هناك أمراضاً وأعراضاً قد تعترى النفوس البشرية فتشوّه من صورها المعنوية كالامراض والاعراض التى تنتاب الاجسام فتشوه من صورها المادية ؟ ثم اذا رأيت ان لاهياً اقلع عن لهوه وغوياً ارتدع عن غيه بتأثير موعظة أو رهبة ، أليس فى هذا دليل واضح على ان أمراض النفوس قد تزايلها اذا صادفت علاجها الحقيق ؟ نعم ان النفس تكون فى مبدأ أمرها طفلة مستعدة للانصباب فى كل قالب ، فان منحت مربياً حكيماً فى أول نشأتها شبت على حسب تعاليمه نفساً حكيمة زكية. وان منيت بمرب مهمل أو تركت لرحمة المؤثرات الرديئة نشأت نفساً شريرة تورد صاحبها الموارد الشائنة وتوقفه المواقف المهينة . وعلى هذا فيكون حال النفس من حيثية قبولها للمرض والمعالجة مثل حال الجسم سواء بسواء ولو كانت الامراض والمعالجة بالنسبة للنفس المعنوية مباينة لامثالها بالنسبة للجسم المادى .

الآن سهل علينا التكلم على كيفية تربية النفوس وحفظها من الامراض وطريقة جعلها صالحة لتأدية وظيفتها . فما هو السبيل الى ذلك ؟ لا سبيل اليه الا باربعة امور : (اولاً) تطهيرها من أدناس الأوهام . (ثانياً) تهذيبها بالمعلومات الصحيحة . (ثالثاً) تعويدها

على مكارم السجايا . (رابعاً) تصحيح اعتقادها . ولنفرد لكل من هذه الامور الأربعة فصلاً مخصوصاً فنقول :

تطهير النفس من الأوهام

قلنا فى السابق ان المشابهة تامة بين قواعد حفظ صحة النفس وبين قواعد حفظ صحة الجثمان . والآن نقول ان أول أمر يجب ان يعتنى به الانسان لحفظ صحته الجسمية هي تطهيره دائماً من أوضار الادناس التى لا تفتأ تعتريه فى أثناء تأدية وظائفه الحيوية وانه لو اهمل ذلك التطهير افضى به الامر الى طروء المرض على جسمه وانهاكه تدريجاً لقواه حتى ينتهى امره بالموت .

اذا تقرّر هذا نقول ان الاوهام الفاسدة والاباطيل الكاذبة هي بالنسبة الى النفس مثل الاقذار بالنسبة الى الجسم فيجب الاهتمام بازالتها بالوسائل الفعالة قبل ان تتراكم على النفس فتمرضها وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها . فقد شوهد أن خرافة واحدة قد تلم بالنفس فتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى . وحرمانها من هذه المزايا يؤدى الى حرمانها من لوازمها فتقع فى امراض يعبر عنها بمثل الجبن والحقد والبغض وهي الامراض التى يضحى فلاسفة الاخلاق كل اوقاتهم للسعى

فى ازالتها حتى انك لتراهم يحذرون الكافة من الوقوع فى اشراك الخرافات كما يحذرونهم من الابتعاد عن أنياب الاراقم ومخالب الضراغم. مبرهنين لهم أن كل الفساد الذى طرأ على العالم فى القرون الخالية كان بسبب احنائهم رؤسهم لكل ما يقال واتباعهم كلما يرسم امامهم بدون برهان ولا دليل .

سبقهم الاسلام الى تقرير هذه القواعد فحذر متبعيه من الوقوع في اوهاق الاضاليل وأراهم ان اكثر ما يدعو الناس اليه يزرى بالعقل ويبعد عن سبيل الحق فقال تعالى : « وان تطع اكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » وقرّر أن الانسان سيقف غداً بين يدى الله. فيسأل عما حمل نفسه اعتقاده من الاباطيل التى لم يقوها الدليل ولم يصحبها البرهان فقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلاً » ثم حكى لنا حال الضالين وأرانا أن ضلالهم هذا نتيجة اتباعهم للظنون والاوهام وحكم عليهم بما هم أهله من سوء المنقلب فقال تعالى : « وما يتبع اكثرهم الا ظناً ان الظن لايغنى من الحق شيئاً ان الله عليم بما يفعلون . »

تهذيب النفس بالعلم

قلنا فيما سبق انه يجب تطهير النفس من الاوهام كما يجب تطهير الجسم من الاقذار والآن نقول ان التطهير المادي كما يحتاج الى مطهر خال من الجراثيم المرضية وآت من المنابع الصحية كذلك تحتاج النفس الى مطهر يطهرها من اوهامها ويخلصها من اقذار وساوسها وهـذا المطهر الخالى من المكاريب هو العـلم المثبت بالتجربة المستدل عليه بالمحسوسات . هذا أمر واضح لا يمترى فيه العقلاء واول من سنه فى العالم المتمدن هو (ديكارت) الفيلسوف الذى كان عائشاً فى القرن السابع عشر ومن ذلك الحين جرى العمل بمذهبه فى تمحيص المسائل العلمية الى الآن .

سبق الاسلام كافة البشر الى تقرير القواعد الحقة لضرورة تطهير النفس وتهذيبها بالعلم والحكمة لما كان السابق الى الحكم بلزومه للجنسين الذكور والاناث معاً فقال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . » وقال عليه الصلاة والسلام : « أطلب العلم من المهد الى اللحد . »

هذا ولم يترك الاسلام باباً تنساب منه الاباطيل الى العلم الا سدّه

ولم يسم الشيء علماً الا اذا قواه الدليل وقامت عليه الحجج الناطقة فقال تعالى : « ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون . »

صرح القرآن الكريم بان كثيراً من الخلق تحسن لهم اهواؤهم تلبيس الحقائق لحاجة فى انفسهم وحذر من السقوط فى مخاتاتهم ووسمهم بأنهم المعتدون الذين يجب ان يلفظوا لفظ النواة ويعاملوا بما هم أهله من الاقصاء . فقال تعالى : « وان كثيراً من الناس ليضلون باهوائهم بغير علم ان ربك هو اعلم بالمعتدين » وقال تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ثم حكى لنا حال الذين يتابعون أهواءهم ويتبعون افكارهم فأنذرهم بسوء المصير وشر المنقلب وقرّر بأن ان يغنى عنهم قولهم انهم مقلدون لسواهم فقال تعالى: « واذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار . »

يصيح الاسلام فى الناس صيحة توقظ الراقد وتبعث الصاحي مبرهناً لهم على أن ضرورة العلم ليست قاصرة على الحياة الأخرى فقط ولكنها تسرى على احوال الحياة الدنيا أيضاً قائلاً لهم ان صلاح الشؤن الدنيوية وقوام الاعمال الحيوية لا يتأتى الا به . قال عليه الصلاة والسلام : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم

ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم . »

يرمى الاسلام المقصرين عن طلب العلم بأشدّ ما يرمي به مقصراً في واجبه نائماً عن مطلبه . قال عليه الصلاة والسلام : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا عالماً أو متعلماً . » وقال عليه الصلاة والسلام : « انه لا خير فى العيش الا لعالم ناطق أو لسامع واع . »

ينذرنا الاسلام بأنه سيأتى زمان يروج فيه سوق الالحاد ويرمى الاسلام بما ليس فيه وينشأ فيه من العلماء المنافقين من يدسون الأباطيل الى الدين ليهدموا صروح الاسلام ويقوضوا من اركانه بأنواع الحيل الجدلية التى تدق على غير الواقفين على حقيقة الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم : « ستكون بعدى فتن يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً الا من أحياه الله بالعلم . »

الاسلام يصرح لنا بأن الجهل والاسلام ضدّان لا يتفقان وان التدرج في فهم القرآن مرتبط بازدياد العرفان وان الراضى بالجهالة يكون راضياً باستمرار جهله بكلام ربه المقصود منه تربيته وتطهير نفسه وفى هذا من الخسارة ما لا يقدره الحاسبون قال الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . » وقال عليه الصلاة والسلام : « وهل ينفع القرآن الا بالعلم . »

هذا هو مقدار تشريف الاسلام لمقام العلم والحث عليه وقد رأيت انه أشدّ تأثيراً على النفس واكثر تحريضاً لها من كل ما نسمعه

من قادة المدنية ونصراء التنور : « ومن أحسن من الله حديثاً . »

تأديب النفس بمكارم الخصال

يعلم كل انسان ان للنفس أميالاً تشعرها وتنفعل لها ولا تستطيع الانفكاك عنها كما يوجد للجسم احتياجات يجب امتناعه بها لحفظ موازنته وعدم الاضرار بكيانه . فكما ان الجسم يشعر بالجوع والعطش والبرد والحر وغير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية مما يجب الاهتمام باعطائه حاجته منه أو وقايته من تأثيره ، كذلك تشعر النفس بحاجتها الى أشياء وهى وان لم تكن جوعاً ولا ظمأً ولا برداً ولا حراً الا أنه لا فرق بينها وبين الجسم في الاحتياج الى أخذ ما يقوم بحياتها منها .

نعم للنفس أميال ومطالب وهى وان كانت لا تحصى فى صورها ولا تحصر في أشكالها الا أنها دائرة على محور واحد الا وهو ميلها الفطرى الى نوال كمال تشعر به فى صميم فؤاد ولا تستطيع التخلف عنه الا أن تموت بحسرة .

اهتم عقلاء العالم من القدم بتهذيب أخلاق النوع البشري ولهم

فى ذلك اقاويل يضيق المقام عن ايرادها ولسنا نكلف أنفسنا اقامة الدليل على عدم صلاحيتها الا باستلفات النظر الى أحوال الامم العظيمة ذات الشهرة التاريخية . نعم ان اقل نظرة في شؤنها واتجاه امیالهـا تدلنـا دلالة صريحة على ان قادتها لم يقفوا على الناموس الأعظم فى تربية الاحساسات وتهذيب الطباع وهو ناموس الاعتدال . بل نرى ان منهم من جعل محاسن الاخلاق قاصرة على امته واباح ارتكاب الرذائل ضد سواها . ويرى هذا الأثر بغاية الوضوح فى كثير من الأمم التى كان لهـا سلطان قوى على غيرها ولدينا على صدق هذه الدعوى ادلة لا يستطاع دحضها بوجه من الوجوه وهذا كما لا يخفى تفريط فى حق الكمال لا يسكن به الفؤاد ولا يرتاح له الوجدان ويقطع الطريق على النفوس فلا تستطيع ان تتابع السير الى غرضها الكمالى الذى فطرت مسوقة الى تلمسه وتحسسه . ومنهم من افرط في كبح جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من اميالها واحساساتها لدرجة تضيق الذرائع عن تحملها الا لوقت محدود .

هذا الافراط كانت نتائجه لا تقل عن نتائج التفريط الذى سبق ذكره فلم يسر على افراد امة الا وأخل نظامها وقوض اركانها وجر اليها من الفتن الاجتماعية ما يطلب علمه من مطولات التواريخ .هذا الافراط في ترويض النفوس يصادف غالباً في الأمم التى اساءت فهم دينها ولم تقف عند الحدّ الذي قرر فى شريعتها الاصلية . نعم لا نشك

ان من الاديان من جاء آمراً بالزهادة المطلقة والخروج الكلى عن دائرة الأشياء الارضية ، ولكن غاب عن أهل هذه الاديان ان هذه الديانات لها زمن محدود ويستحيل أن يعمل بها بعد مضيه وانها لم يقصد منها الا احداث حادث فى الوجود يراد منه اعداد النفوس لارتقاء درجة نهائيــة لا يمكن أن تتيسر الا بعد أن يمهد لها الطريق بتهيء الطبيعة الانسانية لقبولها . وهذه الدرجة الثانية التى ندعى انها غاية مايمكن الوصول اليه فى تحديد الشهوات والنزعات هي خطة الاعتدال .

نعم الاعتدال هو الناموس الاعظم الذى ينبنى عليه قوام كل شيء ويحفظ به كيان كل شيء . أتريد برهاناً على ذلك ؟ انظر الى جميع الكائنات السفلية والعلوية من اول الذرة المادية البسيطة الى اكبر نجم في قبة الفلك ترها كلها ألسنة ناطقة بان الاعتدال مساكها وملاكها وان به كمالها وانتظامها . نعم الاعتدال هو نظام كل شيء فلا تستطيع ان تعلل كمال شيء من الاشياء الا به كما لا يمكنك ان تعزو الاختلال فى شيء الا لفقدانه . لم يبق ريب الآن عند كافة علماء الارض فى ان الاعتــدال هو القاعدة التى يجب ان يبنى عليها كل عمــل وترد الى حدودها كل حاجة سواء جسمية او نفسية . ذكر (لاروس) احوال طائفة من متعبدين زعموا ان نوال الدرجات الزلفى فى الآخرة لايتأتى لهم الا بقتل سائر خصائصهم النفسية وحرمانهــا من كل ما تتوق اليه طبيعتهم بأنواع من الترويض تكل عن احتمالها طاقة البشر ونسب اليهم

فى ذلك اقاويل يضيق المقام عن ايرادها ولسنا نكلف أنفسنا اقامة الدليل على عدم صلاحيتها الا باستلفات النظر الى أحوال الامم العظيمة ذات الشهرة التاريخية . نعم ان اقل نظرة في شؤنها واتجاه اميالها تدلنا دلالة صريحة على ان قادتها لم يقفوا على الناموس الأعظم فى تربية الاحساسات وتهذيب الطباع وهو ناموس الاعتدال . بل نرى ان منهم من جعل محاسن الاخلاق قاصرة على امته واباح ارتكاب الرذائل ضد سواها . ويرى هذا الأثر بغاية الوضوح فى كثير من الأمم التى كان لها سلطان قوى على غيرها ولدينا على صدق هذه الدعوى ادلة لا يستطاع دحضها بوجه من الوجوه وهذا كما لا يخفى تفريط فى حق الكمال لا يسكن به الفؤاد ولا يرتاح له الوجدان ويقطع الطريق على النفوس فلا تستطيع ان تتابع السير الى غرضها الكمالى الذى فطرت مسوقة الى تلمسه وتحسسه . ومنهم من افرط في كبح جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من اميالها واحساساتها لدرجة تضيق الذرائع عن تحملها الا لوقت محدود .

هذا الافراط كانت نتائجه لا تقل عن نتائج التفريط الذى سبق ذكره فلم يسر على افراد امة الا وأخل نظامها وقوض اركانها وجر اليها من الفتن الاجتماعية ما يطلب علمه من مطولات التواريخ .هذا الافراط في ترويض النفوس يصادف غالباً في الأمم التى اساءت فهم دينها ولم تقف عند الحدّ الذي قرر فى شريعتها الاصلية . نعم لا نشك

ان من الاديان من جاء آمراً بالزهادة المطلقة والخروج الكلى عن دائرة الأشياء الارضية ، ولكن غاب عن أهل هذه الاديان ان هذه الديانات لها زمن محدود ويستحيل أن يعمل بها بعد مضيه وانها لم يقصد منها الا احداث حادث فى الوجود يراد منه اعداد النفوس لارتقاء درجة نهائيـة لا يمكن أن تتيسر الا بعد أن يمهد لها الطريق بتهيء الطبيعة الانسانية لقبولها . وهذه الدرجة الثانية التى ندعى انها غاية مايمكن الوصول اليه فى تحديد الشهوات والنزعات هي خطة الاعتدال .

نعم الاعتدال هو الناموس الاعظم الذى ينبنى عليه قوام كل شيء ويحفظ به كيان كل شيء . أتريد برهاناً على ذلك ؟ انظر الى جميع الكائنات السفلية والعلوية من اول الذرة المادية البسيطة الى اكبر نجم في قبة الفلك ترها كلها ألسنة ناطقة بان الاعتدال مساكها وملاكها وان به كما لها وانتظامها . نعم الاعتدال هو نظام كل شيء فلا تستطيع ان تعلل كمال شيء من الاشياء الا به كما لا يمكنك ان تعزو الاختلال فى شيء الا لفقدانه . لم يبق ريب الآن عند كافة علماء الارض فى ان الاعتـدال هو القاعدة التى يجب ان يبنى عليها كل عمـل وترد الى حدودها كل حاجة سواء جسمية او نفسية . ذكر (لاروس) احوال طائفة من متعبدين زعموا ان نوال الدرجات الزلفى فى الآخرة لايتأتى لهم الا بقتل سائر خصائصهم النفسية وحرمانهـا من كل ما تتوق اليه طبيعتهم بأنواع من الترويض تكل عن احتمالها طاقة البشر ونسب اليهم

من الفظائع والامور الوحشية ما لا تصدر الا ممن مسهم ضرب من الجنون الشديد ثم قال : « هؤلاء المتعبدون الذين يريدون ان يميتوا تأثير الطبيعة عليهم صاروا فى الحقيقة ضحايا شهواتهم التى تنهشهم : لانهم بدلاً عن تنظيم حالة نزعاتهم باعطائها مطالبها فى حدودها المعتدلة ارادوا بجنونهم ان يستأصلوا شأفتها . »

كان هذا شأن سائر الأمم فى الافراط فى شهوات النفوس واميالها او التفريط فى كبح جماحها حتى أسفرت سماء الحق بنور الاسلام وانكشف عن محيا الفضيلة الحقة كل لثام فنزلت آي الله تعالى منددة بالغالين والمقصرين منذرة اياهم بسوء المنقلب فى الدنيا ويوم الدين مقررة اصول الاعتدال على قسطاس مستقيم مدعمة قواعد الفضيلة على نموذج حكيم .

نظرت الى منازع الانفس نظرة الحكيم الخبير فلم تقرر لزوم قتل واحدة منها بل عالجتها من حيث يعالج الطبيب المريض بأرشادها الى ناموس الاعتدال وارتها ان الزيغ عنه الى الافراط او التفريط يفضى بالانسان الى ما لا تحمد مغبته ولا تسر عاقبته . علمتنا هذه الآى الكريمة ان الله تعالى لم يخلقنا من عالم العدم الى باحة الوجود ليعذبنا بأنواع العبادات الشاقة التى تميت احساسات الانفس وتخرجها عن دائرة الكمال الانسانى بل خلقنا ووهبنا كل ما نحس به من العواطف لنبلغ به ما اعدّ لنا من الرقى النفسى بسيرنا على مقتضى الحكمة الصحيحة

وأرتنا ان كل ما أمرنا به من انواع العبادات الجسمية او القلبية لا يقصد به الا تلك النتيجة . قال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . »

يصرح لنا الاسلام بأن الغلو فى الدين ليس من الامور التى يكلف الله تعالى بها عباده بل انه يتنزه عن ان يحملهم فوق مقدور طاقتهم: « لا يكلف الله نفساً الا وسعها . » بل كلما يدلنا التاريخ عليه من آثار الغلو الذى أهلك الامم وأبادهم هي من مخترعات افكارهم . قال عليه الصلاة والسلام : « اياكم والغلو فى الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين . » تصدى الاسلام لمن يظن ان التهالك فى العبادة واضناء الجسم فيها مما يبرهن للخالق جل شأنه على شدة الاخلاص فقرعهم على ظن أفضى بهم الى وصف الله تعالى بغير صفاته الكمالية وانذرهم بان تهالكهم هذا فضلاً عن كونه ذاهباً سدى فانه يجر عليهم سخط الخالق وغضبه . قال عليه الصلاة والسلام : « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الذنب مثل جبال عرفة . »

الاسلام دين السعادتين وناموس الحياتين . لم يقرر فى مبادئه الانقطاع الى التبتل : « من تبتل فليس منا » ولا تجنب الحياة الاجتماعية والمسائل الحيوية بالهرب الى رعان الجبال والانقطاع عن سائر الأعمال . كلا . كل ذلك مما ينافى الاسلام ويستلزم غضب الملك العلام . روى ان رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به الى رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال له : « لا تفعل أنت ولا أحد منكم ، لصبر أحدكم ساعة فى بعض مواطن الاسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاماً . »
هذا شأن الاسلام فى الاعتدال فى الدين الذى هو مالك لأزمة النفوس وقائدها الى نعيمها فى الحياتين ولا يختلف عن هـذا شأنه مع اميال النفس ومطالبها . فقد قررنا انه لا يأمر بقتل عاطفة ولا باماتة نزعة بل يسعى فى جعلها معتدلة قويمة بلا افراط ولا تفريط . فالسخاء مثلاً وهو ذلك الخلق المحمود لا يعد فضيلة فى الاسلام الا اذا روعى الاعتدال فيه وبدون ذلك يكون ذنباً يحاسب الانسان عليه . قال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً . » « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . »

ثم ما قولك فى التواضع ؟ التواضع هو ذلك الخلق المحمود الذى يرفع صاحبه عفواً الى مقام الشرف والمجد وهو من السجايا التى يحثنا الاسلام على التخلق بها . قال عليه الصلاة والسلام : « لو كان المتواضع فى قاع بئر لبعث الله اليه ريحاً ترفعه . » ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتأخر عن تحذيرنا من الافراط فيه لدرجة تفضى بنا الى المهانة والصغار وترمينا الى حضيض المذلة والابتذال ويذبها الى التفرقة بين من من الناس يحسن لديه التواضع ومن منهم يليق الترفع لديه حتى

يكون الرجل بمثاله منبهاً كما هو بمقاله واعظاً . قال عليه الصلاة والسلام: « ومن لا يوجب لك لا توجب له ولا كرامه * لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل كمثل ما ترى له * اذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم * الكبر على أهل الكبر صدقة . »

وهكذا ترى الاسلام مع تعليمنا بقدر مكارم الاخلاق وبتأثيرها على مراكزنا فى الحياة الاخرى يرينا جادتها الحقيقية وخطتها الحكيمة حتى لا يكون الانسان حلواً فيؤكل ولا مراً فيلفظ كما هو معنى حديث شريف وهو الامر الذى ينافى شؤن الحيـاة الاجتماعية ويعطل من رقيها كثيراً .

قل لى بابيك ما ذا يكون شأن الطغاة فى أمة افرطت فى السجايا المحمودة وأخرجتها عن حدودها المعتدلة والى اى نقطة تصل شرة المعتدين اذا صادفوا عند كل جريمة عفواً وبازاء كل رذيلة سماحاً ؟ أما تكون النتيجة تمادى الباغين فى بغيهم واخلالهم بمسببات الامن والطمأنينة؟ أما تكون النتيجة حرمانهم من التهذيب والأدب وهما الامران اللذان لا يتمان الا بالعقوبات الرادعة والاحكام الصادعة . قال عليه الصـلاة والسلام : « اقامة حد من حدود الله فى الارض خير من ان تمطروا أربعين يوماً . »

للحياة الاجتماعية شؤن يضيق كتابنا هذا عن درس بعضها درساً

سطحياً وهى تستلزم يقظة من كل عضو فيها وجلداً على تحمل عواديها وفطنة على حل مشكلات دواعيها . بل هى الحرب العوان التى يصلاها الانسان من يوم ميلاده الى يوم نهاية حياته . حرب اعلنتها المطالب الجسمية والنفسية وشبتها الضرورات الحيوية . حرب لا مناص منها لمن أراد الكمال وتوسم العلاء فى دار المآل . حرب اذن الله ان يشب لهيبها ويتأجج سعيرها لتبعث النفوس الى اظهار خفاياها وتحضها على استعمال خصائصها وسجاياها لكيلا يكون الانسان تائهاً عن اسراره ضالاً عن عجائب احواله : «ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون.»

ها هي العائلة : قل لى بابيك كيف يكون حال الادب فيها اذا كان ابوها مفرطاً فى مكارم الاخلاق افراطاً يجعله يتجاوز عن كل سيئة تصدر من اطفاله ويعفو عن كل ذنب يحصل منهم ؟ أليس يؤول حالهم الى التمادى فى الغي ونشأتهم على عدم احترام القوى الوازعة التى سيصادفونها امامهم يوم يكونون رجالاً عليهم تكاليف الحياة ؟ لا شك ان عائلة رزئت بأب مثل هذا يكون حالها الخلل وشأنها الخطل ويكون ذلك الاب في نظر شريعة العدل مجرماً يجب تنبيهه الى خطة الاعتدال. ان صح هذا في العائلة فهو فى الجمعية أصح واصرح .

جاء الاسلام فأنقذ النفوس الانسانية من شقاء التفريط فى الأميال النفسية والافراط فيها وخط للبشر خطة معتدلة تلائم سنة الوجود وتناسب قوانين الحياة مما يسمح للنفس ان تنال حريتها الحقة فترتقى

فى معارج الكمال بانتظام وسلام : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .»

تصحيح الاعتقاد

قد تكلمنا فى فصولنا السابقة على لزوم تطهير النفس من اوضار اوهامها بالمطهر الملائم لها وهو العلم الصحيح ، واستكنهنا لها سرّ صحتها وهو قانون الاعتدال فى امتاعها بسائر اميالها ، وبقى علينا الآن معرفة ماهية سعادتها واطمئنانها فنقول : انا نرى امام اعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بانواع العلوم والمعارف ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بلذة كأن لهم فى كل لذة ألماً وبازاء كل فرح ترحاً . يحسون بكآبة قد رانت على صدورهم فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها. كآبة لا تزايلهم الا بزوال عقولهم عنهم بكأس من الرحيق فلذلك تراهم شديدى الكلف به كثيرى التحرق لفقدانه لانه دواؤهم الوحيد .

ما سر هذا الارق والضجر مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية وهما الامران اللذان عليهما (كما يقال) مدار السعادة الانسانية؟

ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية مع تهذبهم بأنواع العلم وهو كما يزعمون الشافى للناس من نزغات الوسواس ؟ أما يدلنا هذا الضجر السرى على ان النفس تائقة لامر ما ان غاب على الانسان علمه فقد دله عليه أثره ؟ وان ذلك الامر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ولا سكنى القصور ولا أكل الصنوف ولا سماع العيدان ولا مغازلة الغيد ، بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له الا هباء ولا الاكوان بجانبه الا فناء ! ماهو هذا الامر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت وهامت به وسكرت ورضيت به وقنعت ؟ هو لا شك صحة المعتقد واليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الاجسام الصماء ولا من طينة هذه المادة العمياء حتى تأنس الى شيء من اشياء هذه الارض الحقيرة او تهم بملاذها مهما كانت كبيرة ، بل هي من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس الا لنور يجلى عنها ظلمات الاشياء الارضية الكثيفة لتشرف على حضرة القدس المنيفة وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجل من ان تقنع بالمشتهيات الجسمانيــة واكبر من ان ترضى بملاذها المموهة الفانية . فمهما غالط الانسان نفسه بجمع المال ورفاهة الحال ليرتاح سره ويسكن اضطرابه فان النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ليهتدي الى وضح المحجة . فان تبصر فى أمره واكتنه حقيقة سره وأنال نفسه بغيتها من ابلاغها نورها المرجو لها سكن فؤاده وآب اليه رشاده ولو

كان جسمه بين القنا والقنابل وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل الى ابلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها وامتاعها بطلبتها من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل : «الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له . »

العقل فى النوع الانسانى خصيصة من أجل خصائصه ومنحة من أفضل منح الله عليه لو استعمل فيما وضع له واعتنى بصحته واعتداله. بالعقل يسبر الانسان غور هـذا الوجود العظيم على ضخامة اجزائه وعظم ابعاده ويستكنه سير النواميس السائدة عليه فيستدل بهـا على وجود الخالق عز وجل وعلى تنزه أفعاله عن العبث وصنائعه عن اللهو كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الانسان احوال الجمعيات البشرية فيرى نواميس رقيها وهبوطها وأسباب رفعتها وضعتها ويتبصر فى احوال الانبياء الذين ارسلهم الله الى خلقه هادين مرشدين فيستدل بالتدقيق فيما جاؤا به وفى الآثار التى تركوها على معنى النبوة وضرورتها للبشر وحكمة الله تعالى فى اختلاف المدارك والاحساسات وفى تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الانسان بين احوال الماضى والحال فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة ويعثر بتعضيد العلم والبداهة على الديانة التى يجب ان تكون خاتمة الاديان كلها وباقية بقاء النوع الانسانى .

قضت مراحم الله جل شأنه ان يكوّن الاكوان فى الطبيعة على ترتيب محكم ينطق بلسان الصمت للمتبصر ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ويحبب اليه الانتقال منه الى غيره بدون ان يشعر بملل ولا سآمة ولا يؤوب من استبصاره بندامة . بدون هذا الاعتبار بالعقل لايأتى للنفس أن تصحح عقيدتها ولا يتأتى لها تبعاً لذلك ان تسكن من اضطرابها . هذا ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الانسانى زمن كان فيه العقل فى دور الطفولية وكان يكفيه فى الايمان ان يندهش لأمر خارق للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتاًما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل اليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم وتندهش لها ألبابهم فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه . وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الانسانى رشده فلا تجدى فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية ، فان حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولاً ثم اذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعللون معجزته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان طائفة الاسبيريت (الروحيين) فى اوروبا تعمل الآن من الاعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ما لو رآه الجهلاء لظنوا انه من اكبر المعجزات. مع ان القوم لا يدعون النبوّة ولا يزعمون الرسالة ، نعم لا ننكر ان أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الانبياء عليهم الصلاة

والسلام ، ولكنه بدون شك يقلل من أهميتها فى نظر الذين يقفون مع ظواهر الاشياء .

ومما يدل على ان هذه القرون الاخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء اوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وان كان تهوراً منهم الا انهم مصيبون فى قولهم اننا فى زمان لا يجدى فيه للاعتقاد الا النور العقلى والدليل العلمى . ومن اقرب الشواهد لذلك ما كتبه المسيو (هنرى برنجيه) في مجلة المجلات الصادرة فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ . قال ما معناه : « ان العلم والتاريخ قررا بطلان كل هذه المعجزات (معاذ الله) ولكنهما لم يستطيعا ان ينكرا الروح التى بعثت اليها . اما نحن الآن فلسنا بمحتاجين الى معجزة ما فان معجزتنا الوحيدة الخالدة هى هذا العالم العالى الذى لا نهاية له فانه اصلح فى ايقاظ احساسنا الديني من كل المعجزات الماضية . »

لهذه الاسباب جاءت الشريعة الاسلامية تدعو الى السبيل الحق ببداءة العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات واظهار المدهشات لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتى زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ما لا تؤثره عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . نعم جاء الاسلام يخاطب العقل ويحاسب الفكر ويناقش الفطنة فلا يدعو الى الاعتقاد بوجود اله حكيم قادر الا مع تنبيه العقول الى الدليل الحسى على ذلك ولا ينفى عنه الشريك ولا يثبت اليوم الآخر الا بتعضيد

ذلك بالبرهان وتقويته بالحجة المحسوسة .

علم الله ان كثيراً من ذوى الاهواء فى الامم الطامعين فى الكبرياء والعظم قد يحسن لهم الطمع ان يدسوا فى الدين اشياء يرغمون بها أنوف العامة ويقودونهم بها الى حيث توعز اليهم شهواتهم فقرر فى دينه الاخير ان كل دعوة من هذا القبيل يجب ان يطلب الدليل العلمى عليها فانه هو وحده الفارق بين الحق والضلال والمثبط لعزائم أهل البطلان . قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . » وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . »

انحى الاسلام باللوم والتعذير على الذين ديدنهم تقليد آبائهم تقليداً أعمى والجمود على ما ورثوه منهم من الاعتقادات الباطلة بدون روية ولا تحقيق فانذرهم بسوء المنقلب وشر العذاب فقال تعالى : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . »

قرر الاسلام بأن حجة الرجل يوم القيامة بأنه انما قلد غيره وتابعه لا تنجيه من غائلة العقاب ما دام له عقل يميز بين الخبيث والطيب وبين الضار والنافع . قال تعالى : « واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار .

قال الذين استكبروا انا كنا فيها ان الله قد حكم بين العباد . » وقال تعالى :
« وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير . »

صرح لنا الاسلام بأبلغ عبارة بأن الحجة القوية وحدها هى عماد الدين ومساك الاعتقاد فمن فقدها فقد جنى على نفسه جناية عظمى وأوقعها فى مصيبة كبرى لأنه يكون بفقدها قد فقد أعظم دعامة يستند عليها يوم الحساب الأكبر . قال الله تعالى : « ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون . »

هذه هى قواعد الاعتقاد فى دين الاسلام وهى مطابقة تمام المطابقة لما أقر عليه جمهور فلاسفة أمم الارض فى هذه القرون الاخيرة من ان كل قاعدة لا يقررها البرهان يجب ان تسحب عليها ذيول النسيان . فقل لى كيف يمكن ان يتطرق الزيغ الى عقيدة مسلم عالم بحقيقة الاسلام بعد أن يسمع نداء الحق فى صميم وجدانه يزعه عن ورود الاباطيل ويردعه عن التعلق بالأضاليل قائلاً له : « ولا تقف ما ليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً . » ؟ بل كيف يتأتى لمسلم متهذب أن يجارى الهوى ويتبع كل من ضل وغوى بعد ان ينتقش فى جوانح فؤاده ما قاله الله تعالى فى وصف أهل التغفل الذين يقبلون الضلال ويجمدون عليه ويجعلون أنفسهم وقفاً على تصديق الخرافات وهو قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا

يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم اضل ، أولئك هم الغافلون . » اللهم بصرنا بدينك وهو دين المدنية الحقة وهبنا من لدنك ثباتاً على إتباع نهجه القويم وارفع عن افكارنا ما تكاثف عليها من صدأ الاوهام انك سميع مجيب : « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين . »

المطالب الجسمية

قد أتممنا الكلام على المطالب النفسية ولم يبق علينا الا الكلام على المطالب الجسمية وهو القسم الذى باتحاده بالقسم الأول وتناسبه معه يتم للانسان الحصول على سعادتيه اللتين يسعى وراءهما من يوم خلقه للآن فنقول : تنحصر السعادة المادية فى أمرين هما حفظ الصحة والاعتدال فى التصرف بمقومات الجثمان . فلنتكلم على كل منها فى فصل مخصوص :

حفظ الصحة

قدمنا فى فصولنا السابقة ان صحة العقل وهو المميز الأول للانسان عن الحيوان تتعلق بصحة الجثمان تمام التعلق واقل نظرة فى احوال

الانسان تقنعنا بصدق هذه النظرية . وقد ادرك فلاسفة العالم المتمدن هذا السر العظيم فتراهم يهتمون جداً بأمر الصحة اهتماماً لا مزيد عليه ويقررون كثيراً من القواعد المقوّمة للبدن والحافظة لقواه ليمارسها الطفل مع القواعد المقوية للعقل والمنمية له في آن واحد وجعلوا اهميتها لا تنقص عن اهمية تعليم مبادىء العلم في شيء . قرروا كل هذا بعد ما زعموا ان الأديان تسعى جهدها فى ملاشاة الصحة ولا تعد بالنعيم الأبدى الا من لوى الكشح عن امر جثمانه وتهكموا على هذا ما شاؤا مما لا نرى لزوماً لاثباته هنا بل نقول سبق الاسلام كافة البشر الى وضع القواعد الصحية الحقيقية المبنية على ارتباط صحة العقل بصحة الجسم وجعلها أساً من أسس الايمان وحمل كافة متبعيه على الائتمار بها والالتفات اليها كما امرهم بالالتفات الى غيرها من قواعده ونص بأنها من اكبر المنح التى يهبها الله للعبد ولا يفضلها في علو المرتبة الا كلمة التوحيد . قال عليه الصلاة والسلام : « سلوا الله العفو والعافية فان احدكم لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية . »

ولم يكتف بهذا بل قرر من مبادئه الأولى كل ناموس عام لحفظ الصحة وتقويم الجسم مثل النظافة والرياضة الجسمية والعقلية فقال عليه الصلاة والسلام : « الطهور شطر الايمان * أحب اللهو الى الله اجراء الخيل والرمى * روّحوا القلوب ساعة فساعة . »

أما الامراض فان الاسلام يعتبرها عذاباً من الله تعالى يبعثه على

المريض جزاء له على تعديه للنواميس المقررة وعصيانه للقواعد الصحية الثابتة . قال عليه الصلاة والسلام : « المرض صوت الله يؤدب به عباده .» فيجب على المسلم والحالة هذه اذا اصابه مرض – اى سوط عذاب من الله تعالى – ان يسعى فى الانابة الى سبيل الاعتدال فى شؤنه الحيوية ولا يتأتى له هذا الا باستشارة طبيب حاذق عالم باصول نواميس الصحة دارس لقواعد الطب . قال عليه الصلاة والسلام : « تداووا يا عباد الله فان الله لم ينزل داء الا أنزل له دواء . » قلنا طبيب دارس لقواعد الطب لأن الاسلام يحذرنا من الوقوع فى مخاتل الدجالين وينذرهم بالمسؤولية العظمى . قال عليه الصلاة والسلام : « من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن . » ثم ان عجزت الاطباء عن مداواة العلة بعد ان يبذل الانسان وسعه فى التعالج فان الاسلام يبشر الصابر على بلائه بأحسن الاجور فى الدار الآخرة . هذا ودينا القويم يعتبر ضعف البنية وقلة القوّة من الاعراض التى تؤخر الرجل عن نوال الدرجات الزلفى فى الآخرة لانها غالباً تكون نتيجة الافراط في أمور الحياة ومقدمات التكاسل عن أداء واجبات الدين ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام: « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . »

الاسلام لا يبيح لاى مسلم ان يتهاون بأمر صحته لاى غرض كان حتى فى عبادة ربه والاخبات له : روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله ألم اخبر انك تصوم

النهار وتقوم الليل؟ فقلت بلى يارسول الله : قال فلا تفعل . صم وافطر وقم ونم فان لجسدك عليك حقاً وان لعينك عليك حقاً وان لزوجك عليك حقاً وان لزورك عليك حقاً وان بحسبك ان تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فان لك بكل حسنة عشر أمثالها فان ذلك صيام الدهر كله فشددت فشدد على . قلت يارسول الله انى أجد قوة . قال فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه . قلت وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال نصف الدهر . » وكان يقول بعد ان كبر يا ليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم .

لا شك ان كل هذا القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صحته كثير الغيرة عليها وهـذا الغرض الذى يسعى فلاسفة هذا القرن ان ينقشوه فى أذهان العامة حتى يهتموا بالنظافة والصحة فتقل الامراض وتخف آثار العدوى .

الاعتدال فى مطالب الجثمان

يعلم كل انسان ان للجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة على شريطة الاعتدال فيها . فالغذاء وهو أول المقومات الجسمية قد ينقلب

ضربة قاضية على الحياة اذا استعمل بافراط او اذا لم تراع فيه القواعد الصحية كجمع المتعاكسات من المواد الغذائية ولهذا فقد أجمع عموم أطباء العالم على ان ملاك الصحة الانسانية هو الاعتدال فى الشهوات الجسمية. بهذه القاعدة الرئيسية جاء الدين الاسلامى فلم يحرم علينا شيئاً من الطيبات قط ، بل أباح لنا الاكل والشرب من كل شىء صحى ولكن بشرط عدم الاسراف قال تعالى : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق : كلوا واشربوا ولا تسرفوا . »

ليست الزهادة فى الاسلام بالتأثم عن لذائذ المآكل و تضييع الفواكه وحرمان النفس من كل ما تشتهيه . كلا . فليست مقرراته مثل هذه الزهادة التى قد تنافى الحياة الاجتماعية وتهدم صروح المدنية . كلا . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . »

فى هذه المناسبة نقول ان ديننا القويم كما لم يحرم التمتع بلذيذ المآكل كذلك لم يمنع التحلى بجميل الملابس . قال عليه الصلاة والسلام : « ما منع أحدكم ان وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته » ولم يكتف ديننا الحنيف بهذا بل يرغبنا فى التجمل والتزين اذا لم يقصد به ريبة بل قصد به ارضاء الخالق جل وعلا فى اظهار نعمته والتحدث بكرامته . قال عليه الصلاة والسلام : « من كان

له شعر فليكرمه . » اي يسرحه . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله يحب كل جيد الريح جيد الثياب . » وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة قال ما مالك ؟ قال من كل المال قد آتاني الله تعالى . فقال : « ان الله تعالى يحب اذا انعم على امرئ نعمة ان ينظر الى اثرها عليه . »

الواجبات العائلية

للعائلة في الجمعيات المتمدنة شأن خطير ومقام كبير فانها بالنسبة للجمعية الكبرى كالافراد بالنسبة للعائلات الصغرى فاذا صلحت الثانية صلحت الاولى والعكس بالعكس ولذلك ترى فلاسفة الامم خصوصاً في هذا القرن يوجهون اكبر هممهم الى اصلاح شؤونها وتعليم العامة كيفية اقامة أودها بالطرق العلمية المثلى . أما كنه هذه السعادة العائلية فينحصر في امرين رئيسيين وهما اصلاحها ادبياً ومادياً . وهذان الامران منوطان ولا شك برئيس العائلة ومطلوبان منه كأكبر واجب تقضي به شريعة المدنية الحقيقية . من هنا نلقي على عاتق أب العائلة واجبين يفرض عليه تأديتهما على حسب ما تحكم به سنة الحياة فنقول :

الواجب الاول

اصلاح حال العائلة أدبياً

أداء هـذا الواجب من الرجل لعائلته يستلزم امرين رئيسين احدهما اعتباره امرأته شريكة له في الشؤون العائلية واعطاؤها حقها من التجلة والتكريم ، ثانيهما اعتبار نفسه قيماً على اطفال سيكونون غداً ارباب عائلات مثله واعضاء لجمعية لها مقام في الوجود تؤثر عليها تربية افرادها ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وان هذه الجمعية قد ينشأ فيها فرد يرفع مجدها الى عنان السماء وقد ينشأ فيها آخر يدهورها الى حضيض الذل والشقاء ، وان مناط كل ذلك هو التربية في سن الطفولية على المبادئ القويمة او السقيمة ، وان الاب احد المسؤولين عن كل جريمة تصدر من احد افراد عائلته التي رباها في حالة ما اذا كانت تلك الجريمة صادرة عن سوء ادارته في التربية والتهذيب : بهذه الامور جاءت شرعة المدنية الجديدة وعليها بنيت كل نظريات التربية العائلية .

نقول سبق الاسلام كافة العالمين الى تقرير هذه المبادئ القويمة فقال من حيثيـة عدم اهانة النساء والحث على اكرامهن واحترامهن

بلسان النبي عليه الصلاة والسلام : « ما اكرم النساء الا كريم ولا اهانهن الا لئيم . » و « احملوا النساء على اهوائهن . »وفي قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً . » دليل جلي على ان للمرأة شطراً عظيماً من تربية اطفالها وتهذيبهم .

وأما من جهة انطباق الاسلام على ما جاء في الامر الثاني فيكفي فيها هذا الحديث الجامع : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته . » بهذا النص الصريح صار الاب مسؤولاً عن اعضاء عائلته فرداً فرداً ومفروضاً عليه تعويدهم على مكارم الخلال وشرائف الخصال لكي لا يؤخذ بجريرة الاهمال يوم يوجه اليه هذا المقال : « يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك . » حديث قدسى .

الواجب الثاني

اصلاح حال العائلة ماديا

ان ماتكلمنا عليه من ضرورة اصلاح حالة العائلة ادبياً يتعلق كل التعلق باصلاحها مادياً وذلك لان اول ضرورة يشعر بها الانسان هي ضرورة حفظ جثمانه من التلاشى فاذا لم يسهل لديه الحصول على هذه الضرورة كما يجب لم يجد من نفسه قط باعثاً على السعي وراء شيء أدبى

مطلقاً . وفي الواقع ما ذا يكون امر عائلة لا تجد من الغذاء الصحي ما يقيم سلامة اجسامها ويحفظ على افرادها قواهم العقلية والبدنية ولا من المسكن ما يقيهم عوادى الامطار والاعصار ولا من الملابس ما يحفظهم من اعراض الجو المجتاحة ؟ أليس يؤول امر عائلة مثل هذه الى اخس درجات التوحش فتحسن الضرورات لافرادها كثيراً من الدنايا النفسية والخسائس المزرية مع علمك بأن الاحتياج ابو المفاسد الاخلاقية ؟ ثم ما ذا يفيد العائلة وجدانها غذاء جيداً ومسكناً وملبساً كافيين ولم يجد ابوها مالاً كافياً ليقضى به ما يجب عليه من اصلاح حالة عقول افرادها بارسالهم الى المدارس وايجاد المربين لهم فى كل ما تحتاج اليه الحياة المدنيـة ؟ أليس يتضح من كل هذه الملاحظات الحقة ان العائلة تحتاج الى من يصرف عليها بسخاء وان قلة مال ابيها قد توقعها فى أسوإ حالات الشقاء ؟

نعم وبهذه القواعد الممدنة جاءت الشريعة الاسلامية السمحاء . قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله . » وقال عليه الصلاة والسلام : « ما انفقه الرجل فى بيته واهله وولده وخدمه فهو له صدقة . » وليس بعد هذا ترغيب فى الصرف على العائلة .

ومما يدلك على ما للعائلة من الشان الخطير وما للصرف عليها من التأثير الكبير فى نظر ديننا الحنيف ما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا

الحديث الشريف : « ديناراً انفقته في سبيل الله وديناراً انفقته فى رقبة وديناراً تصدقت به على مسكين وديناراً انفقته على اهلك أعظمها اجراً الذى انفقته على اهلك . »

نعم ان الاسلام لايأمرنا بالتقشف المعروف عند العامة من حرمان النفس من كل شيء وجعل المعيشة على درجة من الشظف يعسر معها كل تهذيب اخلاقي ويحرض النفوس يوماً ما الى كسر قيود الدين بالمرة كما حصل ذلك في كثير من الامم بل انا نرى الدين الاسلامي يأمرنا بالسعي فى اصلاح حالة معيشتنا جاعلاً ذلك الاصلاح شطراً منه . قال عليه الصلاة والسلام : « ان من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك . »

ولكن كيف يتأتى للرجل استصلاح معيشته اذا لم يكن ذا عمل يستغله او مهنة يتكسب منها ؟ لا شك يجب علينا أن نتكلم على مقام المال والعمل فى الاسلام لنبطل حجة القائلين بأن الاديان تكرّه العمل للانسان فنقول والله المستعان :

مقام العمل والجد فى نظر الاسلام

ان اقل نظرة في حالة الجمعيات المختلفة التي تتنازع البقاء الآن على سطح هذه الكرة تدلنا دلالة محسوسة على ان اسبق هذه الامم كلها فى مضمار الفوز بحاجيات السلطة والعلاء هي الامة المركبة من افراد أقوا

الكد والعمل وتركوا الجبن والكسل . وعلى هـذا فيجب أن يحسب العمل من ضمن القواعد المهمة الممدنة لافراد النوع البشري والحافظة للامم حياتها واستقلالها . نعم هكذا يعتبره علماء العمران الآن ولاجله يندون على الاديان زاعمين انها تحبب الكسل للانسان وتقذف به الى حضيض الهوان .

نحن لايهمنا فى هذا الكتاب الا تبرىء الاسلام من هذه التهمة الفاضحة واثبات انه من أقوى العوامل فى الترغيب الى الجد والعمل وان قواعده من أشد القواعد تنفيراً عن الكسل .

أجل . الاسلام يرشدنا الى الجد فى العمل للحياة الدنيا بقدر ما يرشدنا الى الجد فى العمل للحياة الاخرى . قال عليه الصلاة والسلام : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . » وقال عليه الصلاة والسلام : « اصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غداً . » فى هذين الحديثين رد على الذين توهموا ان صلاح الدنيا أمر يغضب الخالق جل شأنه ويستوجب سخطه عليهم فنبذوها نبذ النواة ومحضوا انفسهم للتعبد والزهادة باضناء الاجسام وانضاء العقول ولم يعلموا ان الدنيا دار حرب وهيجاء وان القائم فيها يغلب القاعد ويستعبده فيحرمه كل حقوق الحياة وان الطبيعة البشرية لا تلبث حتى تقيم الحجة على مهملى أمرها فينقلب تعبدهم الموهوم فسقا وتنسكهم اجراماً . هذا أمر دلنا عليه تاريخ الاقوام التى

افرطت فى كراهة الاشياء الدنيوية وفرطت في حقوق ضروراتها الحيوية بسوء فهمها لنصوصها الدينية فلم تلبث ان اصبت بها أيدى الغوائل الطبيعية فارتكست الى اسوإ حالة من الفسوق لو اطلعت عليها لوليت منها فراراً ولملئت منها رعباً .

أما الديانة الاسلامية وهى ديانة آخر أدوار الانسانية فلم تقرر فى مباديها امثال تلك العبادة التى كان يقصد بها معالجة نفوس تلك الامم الصخرية بل قررت ان كل عمل يكون مناسباً لسنن الحياة وملائماً للنواميس التى تعلي شأن العائلة البشرية وترفع أميال النفس عن حضيض البهيمية يجب ان يعد عبادة خالصة لله تعالى اذا قصد به وجهه الكريم لا اشباع نهمة الشيطان الرجيم .

ولما كان كسب المال لاقامة أود الفرد والعائلة والجمعية والنوع الانسانى بأسره هو من الامور التى تساعد على الوصول الى الغاية التى حددها الله لهذا النوع قرر الاسلام انه من أفضل ما عبد به الانسان ربه . قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الاعمال الكسب الحلال . » وقال عليه الصلاة والسلام : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله . ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء . »

ولا تحسب ان الاسلام يرغبنا فقط في التكسب والعمل بل يفرضهما علينا فرضاً ويؤاخذنا على تركهما مؤاخذتنا على اهمال أمر لازب . قال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم . »

أما المال وما أدراك ما المال فهو في نظر الاسلام من أكبر مقومات حياة الامة ومن أعظم دعائم الارتقاء لها . قال عليه الصلاة والسلام : « سيأتى على أمتى زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه . » هذا وقد كان بين أصحاب رسول الله من الاغنياء من يكفي مالهم لتجريد حملة عسكرية كما حصل من عثمان رضى الله عنه . وهل بعد مدح النبي صلى الله عليه وسلم للمال الصالح في قوله : « نعم المال الصالح للرجل الصالح . » يقال ان دين الاسلام ينافي الاثراء خصوصاً في مثل هذا الزمان الذي اخبرنا عنه صلى الله عليه وسلم ؟ نعم نحن فى زمان يجب علينا فيه ان نظهر اوامر ديننا القويمة فى الجد والكسب حتى تنشط الانفس من عقال خمولها وتمحي تلك الظنون الفاسدة التى يهمس بها بعض من ينتحلون لانفسهم وظيفة التهذيب والتعليم . فان العامة صارت الآن لا تسمع من ارشاد الدين الا ما ينفرهم عن العمل ويبعدهم عن التكسب ويحبب اليهم القنوع والتقشف وهو ارشاد لم تراع فيه الحكمة النبوية من مداواة القلوب بأوفق علاجاتها .

أما والله لو كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر الناس بكراهة المال وترك العمل ولو بقدر جزء من مائة مما يفعله اليوم بعض المعلمين لما وجد فى الصحابة من يملك شروى نقير لانهم رضوان الله عليهم كانوا أطوع الناس لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فانا نرى الامر

بخلاف ذلك على خط مستقيم . وهاهى أوامر الله تعالى فى كتابه الكريم حاثة على الكسب . وهاهي السنة الشريفة داعية اليه باكثر مما نرى فى كتب مدنية هذا العصر . قال الله تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا . » * « فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله . » وقال عليه الصلاة والسلام : « نعم المطية للدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة . » وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه . » وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال جهاد . »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع اصحابه فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا هذا فانه ان كان يسعي على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فيغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى تكاثراً وتفاخراً فهو فى سبيل الشيطان . » يظهر من هذا الحديث الشريف ان كسب المال تابع لنية الكاسب فان قصد به الغرض الحق كان مأجوراً وان قصد به دنايا الاميال وخسائس الاعمال كان موزوراً ولو كان وجه المكسب حلالا . قال عليه الصلاة والسلام : « من طلب الدنيا حلالا مكاثراً مفاخراً لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافاً عن المسألة

وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر. »

هذا هو القول الفصل فى هذا البحث بقي علينا هنا ان نتكلم قليلاً على ما يستشهد به بعض المثبطين بقول ان الرزق مقسوم وان الكد قد لا يغني فتيلاً . أما نحن فأول المعتقدين بذلك ، ولكننا لا نجترىء على اكتناه ما استأثر الله بعلمه ولا نحاول التنقيب عن عالم الغيب . فما يدريني ان كدى هذا قد يحقق لعلم الله السابق ومالى ولاثارة هذه الافكار التي بسوء فهمي لها تصدني عن الشغل والاجتهاد وتلفتني عن منهج الرشاد ؟ كلا . ان الشريعة الاسلامية جاءت بقوانين الحياة المشاهدة المحسوسة وفى تعاليمها ما يدل الانسان على ذلك دلالة بينة .

قرر الاسلام ان الله سبحانه وتعالى يقسم رزقه بين عباده على حسب تفاوتهم فى الجد فمن كان جده اكثر كان حظه أوفر . والعكس بالعكس . وهذه هى القاعدة التي تبعث الناس الى التسابق فى ميدان هذه الحياة باطمئنان على نوال مكافأة التعب . قال عليه الصلاة والسلام : « ان الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته . »

يصرح الاسلام بلسان فصيح ان الاقدام والهمة فى كل أمرها ملاك النجاح ومسلك الفوز وان الخمول والنطاة هما سبب الحرمان وأصل الفاقة . قال عليه الصلاة والسلام : « التاجر الجسور مرزوق ، التاجر الجبان محروم . »

ينادي الاسلام متبعيه قائلا ان للحياة قواعد ثابتة ونواميس

معينة فمن عارضها عارض ارادة الله تعالى ومن وفق اعماله على نهجها نال بغيته وفاز بمطلبه وان الرزق والكسب خاضعان لهذه النواميس المقررة فمن خالفها حرم ومن لاءمها رزق . وان من أهم نواميس الكسب التبكير للحاجة والجد فيها . قال عليه الصلاة والسلام : « من جد وجد ولكل مجتهد نصيب ، الصبحة تمنع الرزق . » وقال عمر بن الخطاب وهو أحد من يجب الاقتداء بهم : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . » ومع كل هذا فانا نستطيع أن نسكت كل معارض ونفحم كل مجادل فى السعي على الكسب والجد وراء الامل بقوله صلى الله عليه وسلم : « اسعوا فان السعي كتب عليكم . »

هذا والاسلام يحبب الى متبعيه الذين يعسر عليهم الكسب أن يهاجروا الى حيث تسهل لهم المعيشة وتلين الحياة هرباً من الفقر الذي يقول عنه سيد الوجود : « كاد الفقر أن يكون كفراً . » وتحامياً من أن يكون الانسان عالة على غيره . نعم الاسلام يبعث ذويه الى السعي فى طلب قوام الحياة ولو باقتحام الاسفار ومواصلة التسيار وخوض العباب وتجشم الاوصاب قال عليه الصلاة والسلام : «سافروا تصحوا وتغنموا . »

على هذه السنن البينة سار اصحاب سيدالوجود . قال الامام احمد : وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام « يتجرون فى البر والبحر

ويعملون فى تخيلهم . » هذا ومن يتدبر تاريخ الصحابة والتابعين ير مثالا لهمة واقدام وعزم يحق للنوع الانسانى ان يفتخر به حقيقة وان يتوق للوصول الى بعضه . ماذا يرى ؟ يرى شرذمة قليلة كانت منزوية بين الشعاب والهضاب وهى من الفقر والفاقة بمكان لا يساويها فيه غيرها من الامم قامت تنفض عن رأسها تراب الخمول والضعة ائتماراً بأمثال ما قدمنا من الآي الكريمة والاحاديث الشريفة ولم تزل واضعة اياها نصب عينيها حتى بلغت فى مدة ثمانين سنة من الملك وسعة السلطان وامتداد دائرة النفوذ ما لم تبلغه دولة الرومان فى مدة ثمانمائة عام . بلغت هذا الملك كله واخضعته لسيطرتها بطريقة تقرب أن تكون طوعاً لا كرهاً اذا قيست بما كان يستعمله الرومان من ضروب القسوة والوحشية واضطهاد المذاهب الدينية . طالع تاريخ القرن الاول من الاسلام تر بعينيك من عجائب الهمم ما لا نستطيع ان نصفه هنا ولو بوجه عام بما لا تعد همم متمدنى هذا العصر بجانبها الا كسلا وجبناً .

اذا كان الامر هكذا فأين ذهبت الآن تلك الشهامة القلبية والهمة الاسلامية ثم كيف حل محلها العجز والخور حتى عن نوال ما كان شائعاً عند نساء اسلافنا من مكارم الخلال وشرائف الخصال ؟

لم يكف الامة الاسلامية ما هي فيه من الاستكانة حتى قامت بلسان بعض مرشديها تنسب تلك الحالة الى الاسلام زاعمة ان لها الاخرى ولغيرها الدنيا . كلا . ان للاسلام الدنيا والأخرى معاً : «وقيل للذين

اتقوا ما ذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين * ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . » هذا حديث رب الاسلام : « ومن اصدق من الله حديثاً . »

لا يجن المسلمون على دينهم باكثر مما فعلوا ولينظروا اليه نظر عقل وروية ليروا أن اكثرهم الآن لا يتبعون الا اهواءهم وافكارهم ولا يمنعوا علماء المدنية من الالتفات الى الاسلام بما يدسونه ظلماً اليه . وليعلموا انه سيأتى يوم فى مستقبل قريب جداً يظهر الاسلام فى اوروپا برونق يشبه ما كان عليه فى زمن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق انه كان وعده مفعولا . »

الواجبات الاجتماعية

لا يخلو أي انسان خصوصاً فى العصور المتمدنة من أن يكون : (أولاً) عضواً فى جمعية يحكم بقانونها ومشاطراً لاعضائها الآخرين فى المعتقد واللغة والمقتضيات الطبيعية . (ثانياً) يكون مرتبطاً بعلائق الوطنية والحكومية مع قوم ينافونه فى المعتقدات والعادات . (ثالثاً) تكون جمعيته التى

يكون هو عضواً منها مسالمة لاتحاد المصالح لجمعيات أخرى تنافيها فى سائر الحيثيات او في اكثرها . (رابعاً) تكون جمعيته معادية لجمعية أخرى لاختلاف المسائل الحيوية بينهما . فالثلاث احوال المتقدمة لا تخلو منها ابداً جمعية من الجمعيات الكبيرة الحية وقد ينضاف اليها الحال الاخير حيناً من الاحيان او احياناً كثيرة على حسب اهميتها في الوجود فانا نرى باعيننا ان اكثر الامم مدنية وأهمية تجبرها دواعى الاستعمار الى مواصلة الحروب كل آن حرصاً على مصالحها ولو مع قبائل صغيرة .

مجرد النظر الى هذا التقسيم يوجب الاعتراف بأنه تقسيم طبيعى لا مناص منه لانه لسان حال كل أمة متمدنة وغير متمدنة معاصرة لنا او بعيدة العهد عنا . نقول الآن ان كل شريعة عادلة يجب أن تضع لكل من هذه الاقسام الاربعة واجبات تنيط رعاياها بملاحظتها أمام كل قسم منها بشرط أن تكون تلك الواجبات منطبقة على العدالة الحقة وموافقة لسنن هذا الوجود . وهذا أمر لم يتوصل الى اتمامه وتنفيذه على حسب نواميس العدل الحق الى هذه الساعة الا الدين الاسلامي واليك التفصيل والبرهان :

الاسلام يقسم العالم في نظره الى اربعة اقسام كما قدمنا ويحدد بالنسبة لكل قسم منها واجبات خاصة ويفرض على المسلمين مراعاتها وملاحظتها . فالناس أمامه تنقسم : (أولاً) الى مسلمين . (ثانياً) الى ذميين وهم اهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يكونون في ذمة

الاسلام ومحكومين بقوانينه . (ثالثاً) الى معاهدين او مسالمين لحكومة الاسلام . (رابعاً) الى محاربين له . فلنتكلم الآن على الواجبات المفروض على المسلمين مراعاتها بالنسبة لكل قسم من هذه الاربعة اقسام فنقول :

١

واجبات المسلمين بالنسبة لبعضهم

يجب على المسلم بالنسبة لسائر المسلمين أن يلاحظ نحوهم كلما تستلزمه الاخوة الحقة مثل المحبة والمساواة في سائر الحقوق الطبيعية والسياسية . نعم يجب على المسلم أن يعتبر سائر اعضاء الجمعية اخواناً له بصرف النظر عن اختلاف شؤونهم وتباين أصولهم والوانهم وان لا يكون مناط التمايز بينهم الا المزايا الشخصية والمكتسبات الذاتية مع جعل هذه الميزة موكولاً الحكم فيها الى جانب الخالق جل شأنه وعدم غنائها عن صاحبها امام القانون العادل .

أما التحاب بين المسلمين فهو شرط اولى في شرائط الايمان لقوله عليه الصلاة والسلام : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا » ونريد هنا أن ننبه ان هذه المحبة يجب أن تكون صادقة خالية من شوائب الرياء والدهان والا صارت نفاقاً ان لم ينكشف سره

اليوم فى الغد . ولهذا يجب السعي فى تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة كما يسعى لتطهير الايمان من شوائب المكفرات حتى يتم له الحصول عليها ولن يتم له ذلك الا بالتبصر فى مبلغ علاقاته مع بنى ملته وفى نتائج ركونه اليهم او ابتعاده عنهم وفى عواقب الاخلاص لهم أو مداراتهم بشرط أن يكون عالماً بحقيقة الحياة وتكاليفها ليرى رأي العين ان حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم : اذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه مسوقاً رغم انفسه الى اخلاص الحب لبنى ملته كما يكون مسوقاً للالتجاء الى حصن شامخ هرباً من سيل جارف .

هذه المحبة التي يدعو اليها الاسلام هي مناط كل سعادة اجتماعية وملاك كل مدنية حقيقية . ادرس أحوال الامم المتمدنة وتأمل جيداً فى دقائق أجزائها تر أن اكثر الامم تماسكاً بين آحادها وتلاصقاً بين افرادها هي أسبقهم الى مضمار السعادة الحيوية وأوهم كلمة فى الاحوال العمومية . وتر مثل هذه الامة لا تعثر حتى تقوم ولا تهمد حتى تنشط فبينما تراها مرتبكة فى أمورها الخارجية ومهددة فى منابعها الحيوية مما يقرب اليك الجزم بقرب سقوطها ووشك انحلالها لا تلبث أن تراها قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك وصاحت بمن يناويها من كل جانب فبددتهم بغير سلاح ورفعت فى سر هربهم الاقداح . هذا من اسرار التماسك الذى هو نتيجة المحبة وليس ما نراه فى الامم اليوم الا جزءاً يسيراً مما كان بين آبائنا الاول فرفعهم الى أوج لم ينله الآن غيرهم

واوصلهم الى مجد لم يتق اليه سواهم . تمّ لهم ذلك بعد التقاطع والتنابذ بفضل الديانة الاسلامية والعمل بأوامرها السماوية . ولو أردنا ان ننقل هنا ما ورد فى ضرورة التحاب بين المسلمين للزمنا صفحات كثيرة جداً فنكتفي بايراد حديث شريف يدلنا على نقصان اسلام الذين يدعونه زوراً حالة كونهم لا يهتمون الا بأنفسهم وملاذهم صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على اخوانهم وهو : « ومن اصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم »

ولنورد هنا بعض حقائق تاريخية تدلنا على مبلغ المحبة الاخوية التي كانت موجودة بين افراد الجمعية الاسلامية الاولى ليتعظ بها ابناء هذا العصر وليعلموا انهم بلغوا منها درجة لا تحصل بين اخوين شقيقين فى هذا الزمان . قال حذيفة العدوي : « انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعي شيء من ماء وأنا اقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت اسقيك فأشار الىّ أن نعم فاذا رجل يقول آه فاشار ابن عمي الىّ أن انطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت اسقيك فسمع به آخر وقال آه فاشار هشام انطلق به اليه فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات . » انظر الى هذه الارواح الطاهرة التي تشعر ببعضها حتى فى ساعة لا تستطيع الوالدة فيها ان تفتكر فى فلذة كبدها . انظر الى هذه النفوس الزكية التي تؤثر غيرها عليها فى ساعة هولها عظيم

وألمها جسيم : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » . ثم تأمل فيما تستلزمه هذه المحبة من الاوصاف التي يفتخر بها هذا الانسان ويدعى استناداً عليها إنه ارفع من الحيوان . هل بعد هذا التماسك العجيب بين افراد آبائنا الاول نستغرب سرعة امتلاكهم لأزمة هذه المعمورة مع قلة عددهم وعددهم ؟ هذه المحبة الحقة كانت شأن كل فرد من الافراد سواء كان اميراً او حقيراً غنياً او فقيراً وما كان يصد ذا المركز السامي ما هو فيه من الرئاسة عن اجراء واجبها بدون اخلال بوظيفته . اجتمع مرة قراء البصرة الى ابن عباس وهو عامل عليها (اي واليها) فقالوا لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوّج ابنته من ابن اخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فاخذ بايديهم وادخلهم داره وفتح صندوقاً فاخرج منه ست بدر فقال احملوها فحملوا فقال ابن عباس : « ما انصفناه اعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا لكي نعينه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه وما بنا من الكبر ما لا نخدم اولياء الله تعالى . » ففعل وفعلوا .

بسريان هذه المحبة الصحيحة فى الامة الاسلامية الاولى تأيدت دعائم المساواة والحرية والعدالة فيها تأييداً لايبلغ شأوه ولا يحصل بغير الاسلام على جزء منه مما سنتكلم عليه تفصيلا فى فرصة أخرى .

هذا وقد اناط الدين الاسلامي بكل فرد من افراد المسلمين

واجب السعي في اعلاء كلمة الامة وتأييد مركزها وقرر ان اعظم عبادة يحبها الله تعالى هي السعي وراء تحقيق السعادة العمومية . قال عليه الصلاة والسلام من حديث : « ان صبر احدكم ساعة في بعض مواطن الاسلام خير له من أن يعبد الله وحده اربعين عاماً . » وقال عليه الصلاة والسلام : « صلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم . » وقال عليه الصلاة والسلام : « عدل يوم خير من عبادة ستين سنة * من قضى حاجة لاخيه فكانما خدم الله عمره * من مشى في حاجة اخيه ساعة من ليل او نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين * من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . »

لا شك ان من يتأمل فيما سردناه هنا من الاحاديث الشريفة ير بعينيه ان مقصد الله جل وعلا من سن الاديان ليس هو التهالك في العبادة الجسمية او التفاني في الزهادة المضنية بل قصده تهذيب الجمعيات البشرية وترقيتها الى أوج مدنيتها بسيادة النواميس الممدنة على افرادها . ألا ترى انه يقول ان سماع كلمة حكمة خير من اعتكاف شهرين وان اصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصيام ؟

اللهم ارزق المسلمين تبصراً في دينهم وهمة لمحو الخزعبلات من اذهانهم حتى يستطيعوا ان يروا الاسلام بالعين التي يجب ان يرى بها فان من يفهم ما نقلناه هنا من الاخبار النبوية يتحقق ان المسلمين الآن

بتقاطعهم وتنابذهم وجهلهم قد نبذوا دينهم ظهرياً واستوجبوا سخط الخالق باتباعهم لاهوائهم . نعم ان هذه الاحاديث تدلنا على ان التقاطع والتباغض ينافي الاسلام بالمرة بل هو مروق منه فان الله سبحانه وتعالى لم ينزل هذا الدين للافراد بل انزله لعموم الجمعية فان اكثر أوامره لا يمكن العمل بها الا بالالتئام والوئام لا بالتقاطع والانفصام.. قال عليه الصلاة والسلام : « الاسلام الى الجماعة احوج من الجماعة الى الاسلام . »

استطراد الى الرق فى الاسلام

نحن لا نحب ان نختم هذا الفصل قبل أن نري القارئ اللبيب احكام الديانة الاسلامية بالنسبة للارقاء فان فى ذكر هذه المسألة فوائد جليلة جداً تجعلنا ندرك الفرق الهائل بين العدالة الالهية والعدالة البشرية فنقول : كلما رأيته من حقوق المسلم على المسلم ينطبق تماماً على الارقاء فهم بحكم الشرع اخوان مواليهم للحديث الشريف : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم » الخ وبناء على هذا فليس لاعظم عظيم حق فى التفاخر على عبد زنجي مسلم مهما كانت صفته .

ومما يجمل الاستشهاد به في هذا الموضوع ان أبا ذر الغفارى رضى الله عنه كان يناقش عبداً بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فغضب منه

وقال له يا ابن السوداء فما أتم هذه الكلمة حتى التفت اليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : « طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بعمل صالح » فوضع ابو ذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجي : « قم فطأ على خدى » وكان عبد الرحمن بن عوف اذا مشى لا يفترق عن عبيده لتشابه ألبستهم وتشاكل ازيائهم وعدم تقدمه عليهم . وروى ان الامام علياً رضى الله تعالى عنه ذهب مرة الى السوق مع رقيقه فاشترى ثوبين احدهما اكثر ثمناً من الآخر فأعطى خادمه الأثمن وأخذ لنفسه الآخر فقال له الرقيق: « أنت يا مولاى أحق بهذا الثوب » فقال له أمير المؤمنين : « كلا انك أولى به مني لانك شاب وأما أنا فقد هرمت » وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « ان أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا » (يعني بلال الزنجي) . فانظر بأبيك كيف ساد حب المساواة فى أفكار الصحابة وهم ملوك العرب فى الجاهلية حتى صار مثل عمر لا ينظر الى بلال الزنجى الا من حيث خصائصه لا من حيث لونه ولا اصالته ! ولما احتضر عمر ولم يرد تعيين خلف له سمع يقول : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة (أي رقيقه سابقاً) حياً ما جعلتها (أي الخلافة) شورى »

فهل سمعت أيها القارىء فى تاريخ البشر ان حب المساواة والاخاء والحرية ساد فى أمة من أمم الأرض الى هذه الدرجة ؟ ان هذه

المساواة لم يحلم بها فيلسوف للآن حتى فى آخر القرن التاسع عشر ولا يتصور أحد من متشرعي هذا القرن أن من الممكن حدوث هذه المساواة ولا بين اكثر الامم مدنيــة وعدلاً . فمن يلومني الآن اذا قلت بارفع صوت ان هذه المساواة هى آخر ما يمكن حدوثه بين البشر وان كل خطوة تخطوها الامم المرتقية فى سبيل تعميم هذا المبدأ العظيم ليس هو الا تقرباً من هذا الاس الاسلامى ؟ ومن يكذبنى اذا قلت ان هذه المســاواة الحقة لم تسطر للآن الا فى الكتب الاسلامية : اللهم اهد المسلمين للتمتع بجمال دينهم وألهمهم ذكرى مؤثل مجدهم .

هنا يحتمل أن يسألنا سائل فيقول اذا كان الاسلام كما ذكرت قرر المساواة بين الارقاء والاحرار الى هذه الدرجة وأظهر لهم من الشفقة والرحمة ما لم يحصل مثله في تاريخ البشر بأسره حتى قرر قتل الحرّ بالعبد وعدم قتل العبد بالحرّ فلماذا لم يقرر ابطال الرق ومحوه ؟ فهل كان ابطال الرق أشد صعوبة من ابطال عبادة الاوثان ؟ فنجيب ان الاسلام دين عام لم يأت الا لاجل ان يتبع ويسار بحسب تعاليمه . ولا يصح ذلك الا اذا كانت أوامره ونواهيه ملائمة للطبيعة البشرية التي فطر الناس عليها ومناسبة للبواعث والاميال الانسانية التي لا مفر من التأثر بتأثيراتها ومشاكلة للنواميس السائدة على الجمعية الآدميــة رغم أنفها وعلى غير علم من أفرادها ليرتقي النوع الانسانى تدريجاً من حالة البهيمية التى كان فيها الى ذروة المدنية التى سيلاقيها . هذه النواميس

أحس بوجودها فلاسفة العمران مثل (أوجست لكنت) و(هجل) و (سبنسر) وغيرهم لانهم رأوا النوع الانسانى متبعاً سلسلة فى الترقيات منتظمة الحلقات لا يمكن تخلفه عنها بوجه من الوجوه رغماً عن الفتن التى تعتريه والثورات والمظالم التى تنشب فيه . بل قالوا ان كل هذه العقبات التى تظهر للنظار البسيط عوائق وحوائل ما هي الا عوامل تسوق الى الامام وتخرج الانسان من الخلط الى النظام . فكل حكمة يقولها الفلاسفة مهما ظهرت للسامع المجرد سامية عالية فلا تتصور أنه يمكن العمل بها فى كل طبقات الامم الا اذا لوحظ معها سير نواميس التدرج البشري وتطوره وهيهات ان يصل الحكماء الى سير تلك النواميس بالدقة مهما كانوا مطلعين أو منقبين .

ان من يمعن نظره فى تطورات الانسان وتدرجه فى الترقى الفكرى والمادى ير بطريقة محسوسة ان كل تطوّر دخل فيه شعب من الشعوب لم يحصل الا فى الوقت الذى صار فيه الجسم العام للهيئة الاجتماعية متهيئاً ومستعداً للدخول فيه . ان نواميس الحرية والمساواة لم تشرق على أفق بعض ممالك أوروبا ائتماراً بقول فيلسوف أو سماعاً لنصيحة حكيم . كلا . بل تقدم ذلك مناسبات ومقتضيات هيأت جسم الهيئة الاجتماعية الى قبول شكل آخر غير الشكل الذى كانت به . وهذا بحث لو أطلقنا له عنان القلم لأدانا الى تطويل ليس هنا موضعه .

بناء على هذه القواعد الاساسية الثابتة جاءت الديانة الاسلامية

مراعية لسير تلك النواميس الطبيعية السائدة على الانسان مراعاة تدهش المتبصر وتبهت المتدبر . فبينما نرى القوانين والقواعد الوضعية التى رقت المجتمعات حيناً من الازمنة السابقة صارت الآن مما لا ينطبق أصلاً على الاحوال الراهنة نرى بعكس ذلك القواعد الاسلامية حافظة شبيبتها لم يعترها هرم ولم يعتورها سقم . نراها لم تزل ولن تزال كما كانت تنطبق على كل جمية وتلائم كل استعداد وقابلية . ذلك لانها هي نفسها تلك النواميس المرقية التى ظل يتحسسها علماء العمران من أول نشأة الانسان للآن .

نحن لا نقدم كل هذه المقدمة لنبرهن للعالم ان الرق قاعدة من قواعد الاسلام يجب أن يوجد للآن . ولكننا نريد ان نعلل عدم ابطال الاسلام له في أول نشأته بالبرهان الحسي والدليل المشاهد ولا نرى لاجل هذا دليلاً أقوى من نقل قول العلامة لاروس فى دائرة معارفه . قال : « ان الحروب أفادت النوع البشري كثيراً حتى أن أسوأ نتيجة من نتائجها وهى الاسترقاق لم تخل من فائدة كبرى ومزية عظمى . ولا يستغربن القارىء هذا الامر فان ترقى النوع البشري قد يأتى احياناً من طرق لا يظن مجيئه منها : فبالاسترقاق تحررت المرأة من ذل الاسر الذى كانت فيه عند بعلها فانها كانت عنده لا تفترق عن العجماوات والبهائم ولما جاء الرقيق رفع عن كاهلها كثيراً من المصاعب التى كانت منوطة بادائها وأسماها نوعاً ما فى عين الرجل لان

دخول الغريب الى العائلة يقضى على افرادها باحترام بعضهم بعضاً امامه . كل هذه المزايا أثرت على المرأة تأثيراً حسناً أهلها لان ترتقى سلماً من التهذيب وبترقى المرأة تحسن شأن النوع البشري وارتقى تبعاً لها الى معارج الفلاح . أما الآن فلم يبق لزوم للاسترقاق فان الاعمال قد خفت وطأتها عن عواهن البشر وجاءت الآلات الميكانيكية فأراحت الانسان كثيراً عما كان عليه في الأزمنة السابقة . » انتهى باختصار .

نقول ولو كانت الديانة الاسلامية ابطلت الاسترقاق من منذ ثلاثة عشر قرناً لكانت خالفت سنة الوجود وجاءت بأمر يؤخر متبعيها عن الرقي والمدنية . ولكن حاشاها من معارضة نواميس الحضارة فانها اقرته بعد ان حصرته فى دائرة محيطها الحكمة والعدالة وأسبغت على الآسر والمأسور نعماً لا يمكن تفضيل إحدهما على الآخر فيها فلم تبحه الا فى الحروب الشرعية ضد الامم الوحشية غير المسالمة بينما كانت الامم الاخرى متبعة فى الاسترقاق طرقاً بربرية يأنفها الانسان ويستقبحها الحيوان . ثم لم يكتف الاسلام حصره فى هذه الدائرة المحكمة بل جعل للارقاء حقوقاً ماكان يحكم بها أحرار الامم الاخرى فى اكثر الممالك حضارة وتهذيباً . ولو كانت الامم البربرية تعلم مقدار عناية المسلمين بارقائهم وشفقتهم عليهم ومساواتهم اياهم لانفسهم لقدموا فلذات اكبادهم عبيداً لهم ولرجوهم قبولهم كما يرجو الأب الشفوق ناظر مدرسة حكيمة ليقبل ابنه فى سلك تلامذته لكي يراه يوماً ما آدمياً

كاملاً . وفى الواقع بينما كان آباء ارقاء المسلمين واخوانهم هائمين في الفيافى والقفار كان هؤلاء فى الجمعية الاسلامية موضوع الاحترام والتجلة وشاغلين لأسمى المراكز الاجتماعية فى الادارة والحربية مثل بلال وسالم وسلمان وغيرهم . اما وحق المساواة والحرية لو علم ملوك السودان ان عمر بن الخطاب الذي كانت تهتز عروش الملوك عند ذكر اسمه قال لجلسائه ان أبا بكر سيدنا واعتق سيدنا (يعنى بلالاً) لنزلوا عن عروشهم وقدموا انفسهم ارقاء لهذه الجمعية التى تجعل عبيدها سادتها نظراً لمزاياهم الشخصية وخصائصهم الذاتية .

قلنا كل هذا ولكن هل الاسلام أقر الاسترقاق على وجه الاطراد ولم يشر بطرف خفى يفهمه اللبيب انه سيكون يوماً ما شراً لاخيراً كما هو شأنه الآن ؟ نعم أشار الى ذلك باشارة صريحة يفهمها كل انسان ولا سبيل لتأويلها فقال عليه الصلاة والسلام : « شر المال فى آخر الزمان المماليك . »

انظر ببصيرتك الى هذه المعجزات العلمية وروض فكرك في الديانة الاسلامية وكذب ولو بقلبك الطغام الذين ألصقوا بها المشائن الوهمية والمعاير الخرافية فقالوا انها تعتبر الرقيق حيواناً وتحث على النخاسة وتندب اليها . ومفتريات أخرى تايت في المجامع وتشبع بها كل سامع . ولكن لا بد للحقيقة أن تظهر وللباطل ان يدحر وللاسلام ان يعرف ويشهر : « ولتعلمن نبأه بعد حين . »

٢

واجبات المسلمين بالنسبة للذميين

أي لأهل الكتاب الذين هم في ذمة المسلمين

من يتدبر في تاريخ الانسان من مبدئه الى يومنا هذا يتحقق ان محبته لدينه قد تغلبت فى فؤاده على كل محبة سواها فتراه يضحى نفسه وأهله وماله فى سبيل تأييده ونصره وهو قرير العين منشرح الخاطر . هذه المحبة الدينية فهمها اكثر الاقوام على غير المراد منها وقذفوا بها الى الافراط الهائل حتى حببت اليهم اجتراح كل انواع المظالم واقتراف انكاء الجرائم تحت حجة نصر الدين وكبح جماح الملحدين . حصل كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشرية وقوانين الهيئات الاجتماعية مما كان له اسوأ أثر فى تاريخ امثال هذه الامم الحقود .

اما الاسلام وهو دين المدنية الحقيقية وملاك السعادة الانسانية فقد اختط لمتبعيه من هذه الحيثية خطة ليس في مقدور مجموع الفلاسفة عموماً ان يقرروا مثلها فى اذهان أممهم ولو بلغوا من السلطان على الافكار ابعد غاية . كيف توصل الاسلام ياترى الى اقتلاع جذور الاحقاد الدينية من عقول متبعيه بدون ان يقلل شيئاً ما من محبته

في انفسهم مع علمنا بان اكثر الامم محبة لدينها واحتفاظاً به هي أشدها حقداً على مخالفيها ؟ انه توصل لذلك بطريقة لم نسمع بها عن قادة المدنية ولم يقررها العالم العلمي الا من منــذ امد قريب اي بعد ان وقف علماء الانسان والعمران على اسرار النفس وتأثير المدنية عليها . فبينما كانت رؤساء اكثر الاديان الأخرى يقولون لمتبعيهم ان الله قد أمر ان تكون العائلة البشرية كلها امة واحدة متخذة الدين والاخلاق والعادات فاعملوا على تأييد هذا المبدإ ما استطعتم لذلك سبيلاً فان اختلاف النوع البشرى يسخط الله لمعارضته لارادته الازلية كان الله تعالى يوحى الى نبيه لباب الحكمة قائلاً له وللمؤمنين : « ولو شــاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » * « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » * « انك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء . »

وبينما كان رؤساء اكثر الاديان يأمرون متبعيهم باستعمال اشــد الطرق الاكراهية فظاعة لحمل الناس على الدخول فى ملتهم ولو ادى ذلك الى قتل الابرياء وتيتيم الابناء وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام كان الله تعالى ينزل على رسوله من سماء الرحمة آي الحكمة قائلاً له وللمؤمنين : «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » * « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ . » *

و « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين . »

كل هذه الآيات البينات غرست فى افئدة المسلمين قاعدتين عظيمتين محتا من نفوسهم كل حقد ديني ولاشتا كل تعصب مذموم : القاعدة الاولى هي فهمهم من منطوق هذه الآيات ان الله سبحانه وتعالى قضى فى سابق علمه ضرورة افتراق العالم البشرى الى جمعيات متخالفة المبادئ والغايات متباينة المشارب والاعتقادات فيكون الساعي ضد هذا القضاء الالهي بغير ما رسم له عاصيا ربه مستحقاً سخطه وغضبه . القاعدة الثانية هي استنتاجهم من هذه الآيات نفسها ان تنكب الناس عن دين الله سببه تفاوت مداركهم فى الفهم واختلافهم فى درجات العقل وان لا سبيل الى انتشار هذا الدين الا بين من أسعدهم الجد بادراك سره وفهم المراد منه ولذلك أمرهم ان يسعوا الى نشر الحقيقة الاسلامية من بابها وهو الدعوة اليها بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذى لا تكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين . هاتان النظريتان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلاهم لا ينظرون فى اختلاف الاديان والمتدينين الا اشياء مرادة لله تعالى سبق بها قضاؤه واستلزمتها حكمته ليتم الابداع الذى اراده وقدره لهذا النوع البشرى . ويزيدهم رسوخاً فى عقيدتهم هذه ما أثبته علماء العمران حديثاً من ان اختلاف النوع البشرى ضرورى لانماء المدنية واستمرارها ولازم

لايراد هذا النوع موارد سعادته المرجوة .

بعد ان يقرر الاسلام في اذهاننا هذه المبادى الحكمية يأمرنا بالتخلق باخلاق الله فى معاملة من يلوون كشحا عن شريعته فانه سبحانه وتعالى قادر على ان يعاملهم بما لا يطيقونه ولكنه لا يفعل ذلك بل يعاملهم فى الحياة الدنيا اسوة غيرهم وربما ميزهم عن سواهم اذا كانوا اكثر أهلية منهم لنوال السعادة المادية : « ومن يرد حرث الدنيا نؤته منها . » نعم يأمرنا الاسلام ان نسدل ستاراً كثيفاً على معتقدات مخالفينا في الدين ويحثنا على معاملتهم بانواع الرفق ومكارم الاخلاق . قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . » وينهانا عن أذاهم ومماكرتهم ونصب المخاتل لمشارتهم . قال عليه الصلاة والسلام: « من آذى ذمياً فانا خصمه ومن كنت خصمه فقد خصمته يوم القيامة » * « من قذف ذمياً حدّ له يوم القيامة بسياط من نار . »

هذا ودينا الكريم يلزمنا بمساواتهم بانفسنا أمام القانون ويزجرنا أشد الزجر على اهتضام حقوقهم وهو الامر الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ اي أمة من أمم الارض . أرنى اي أمة تأيدت فيها قواعد العدالة ورسخت فيها اصولها لدرجة تقتل احد اعضائها عقوبة له على قتله احد الاجانب عن دينها الرسمى حالة كونها في اوج عظمتها وقادرة على ان تفعل ما ارادت من انواع المظالم فى جانبهم ؟ جاء فى التاريخ الاسلامى ان

يهودياً اشتكى علياً للامام عمر رضى الله عنهما — وعلي كما لا يخفى ابن عم النبي وزوج ابنته وأحد المرشحين لمركز الخلافة — فقال له قم ياابا الحسن فاجلس امام خصمك ففعل ولكن مع تأثر لاح على وجهه ، فلما انتهت القضية سأله عمر قائلا : أكرهت يا علي ان تجلس امام خصمك ؟ — قال لا ولكنى تكدرت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا بقولك لى يا ابا الحسن (لان الكنية تشير الى تعظيم) . قل لى بعيشك هل ورد فى تاريخ بني آدم مثل هذه المساواة امام القانون بين احد عظماء أمة عظيمة يهز اسمها عروش الملوك والقياصرة وبين رجل من السوقة غريب عن ديانتها ؟ هذا هو تاريخ الامم جمعاء يخبرنا ان المساواة لهذا الحد لم تقرر حتى بين الطبقات المختلفة فى الامة الواحدة الا من منذ زمن قريب جداً بما يحدو بنا الى الجزم بان هذه العدالة الحقة لم يعمل بها مطلقاً الا في الامة الاسلامية .

كانت العدالة فى الامم المتمدنة القديمة اسماً بلا جسم وكانت العقوبات تتنوع وتختلف باختلاف الرتب والالقاب . اما الشعب ذاته فكان تحت رحمة اهواء سادته الاعلين وقادته الغالين . اما المساواة التى يتبجح بها فلاسفة هذا العصر فهى بنت الثورة الفرنساوية الهائلة التى بيعت فيها المهج بالمجان وصبغت فيها الارض بالارجوان . قال المسيو لاروس فى دائرة معارفه : « ان العقوبات فى روما (عاصمة دولة الرومان) كانت تختلف دائماً فى الجنايات المتشابهة على حسب اختلاف

حالة المجرمين وحيثيتهم . » ثم ذكر تفصيل ذلك الجور وانتقل من قانون الرومان الى قانون الفرنساويين قبل الثورة الفرنساوية وألصق به مثل هذا الخلل فى قواعد العدالة ثم قال : « ان ثورة سنة ١٧٨٩ قذفت كل هذه الامتيازات بنفس الحركة التى محت الالقاب المختلفة التى كانت تابعة لاصالة الشخص او للوراثة . »

فقل لى بعيشك كيف لا يفتخر المسلمون بدينهم اذا تحققوا ان هذه المساواة التى يقول عنها الفلاسفة انها سبب كل سعادة اجتماعية لم تقرر لاول مرة الا فى الجمعية الاسلامية وانها لم تقرر فقط بالنسبة للمسلمين فيما بينهم بل بين اعظم عظيم فيهم وبين احقر حقير من غير ملتهم ؟ اللهم انا نعتقد ان هذه العدالة ليست من موضوعات البشر ولم تكن في مكنتهم مطلقاً قبل اربعة عشر قرناً بل هي عدالتك التى غمرت كل شيء وسادت كل شيء فمتعنا اللهم بالتدبر فى معجزات دينك انك على كل شيء قدير ..

الاسلام يأمرنا بمجاملة الاجانب عن ديننا ومحاسنتهم ولكن لا من باب المواربة والمداهنة خوفاً منهم أو طمعاً فيهم . كلا . بل عن صفاء نية وسلامة طوية حتى انه ينهانا عن اغتياب أحدهم وذكره بما يكره كما ينهانا عن اغتياب أحدنا سواء بسواء . ولم يحلل لنا بوجه من الوجوه نصب الاوهاق لهم لمصادرة أشيائهم تحت ستار القانون المموه أو العدالة الوهمية كما فعله ويفعله كثير من الامم بالنسبة للمخالفين لمعتقداتها .

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم اسوة يجب ان نتأسى بها فى معاملة الاجانب عن ديننا ومخالفى معتقداتنا فانه عليه أشرف التحية والسلام كان يحضر ولائمهم ويغشى مجالسهم ويشيع جنائزهم ويعزيهم على مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات الاجتماعية التى لابد منها فى كل جمعية محكومة بقانون واحد وشاغلة لحيز مشترك. روت السنة الكريمة ان سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهنهم أمتعته الشريفة لا عجزاً من اصحابه عن اقراضه فانه كان منهم المثرون وذوو الاملاك الشاسعة وكلهم مستعد لان يضحي نفسه ونفيسه فى سبيل مرضاة نبيه، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك تعليماً للامة وارشاداً لها ان الاسلام اكبر واجل من ان يأمر ذويه بقطع العلائق مع من يعيشون معهم فى مكان واحد بحجة انهم مغايرون لهم فى المعتقد. وفى ذلك دلالة ناطقة على ان المسلم يستطيع ان يعيش بمفرده فى بلاد اجنبية عن دينه ولا يضره كون اهلها من غير ملته بل ويسمح له ان يتزوج منهم.

ليس فيما بين ايدينا من اسفار المدنية ما يرينا ان هناك فلسفة تهدى الى احترام النوع البشرى بمثل ما يهدى اليه الاسلام ويأمر به. تصفح تواريخ الامم سابقها ولاحقها تر بعينيك من آثار قسوة الانسان على الانسان ما يحملك على اليأس من سيادة ناموس الاحترام النوعى بين افراد البشر ويجعلك تثق بقول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

نعم يرينا التاريخ من آثار ظلم الانسان للانسان ما تقشعر له الابدان ويخجل منه الحيوان وان كل هذه الفظائع كانت تحصل انتصاراً للاديان . نحن لا نتصوّر ان ديناً سماوياً يأمر ذويه بالفتك بمن يخالفهم واستئصال شأفتهم بأفظع الطرق ولكنا ننسب ذلك كله الى سوء فهم متبعيها وادخالهم الغش والتدليس فيها لمآربهم الشخصية وأميالهم البهيمية . قد بلغت تلك الوحشية فى الاكراه لدرجة كانوا يرمون بنى نوعهم طعمة للنار المتأججة او فريسة للحيوانات الكاسرة او يربطون رجليه فى ذيلى حصانين شديدين ويطلقونهما فى اتجاهين متخالفين او يصبون على جلودهم القطران والقاز الغاليين في النار او يعلقونهم على نيران هادئة اياماً عديدة ولا يهتمون بأنينهم ولا زفيرهم فتتساقط لحومهم وتذوب شحومهم . كل ذلك كان يحصل على مرأى ومسمع من الناس فلا يجدون من انفسهم فؤاداً يشفق او احساساً يتأثر بل كانوا يمرون عليهم متفرجين متشفين .

قل لى بابيك أين هذه الصدور المتأججة بالاحقاد المتلهبة بالاضغان التى تحمل ذويها على استئصال الامم ومحو اسمها لمجرد رفضها ترك دينها من تلك الصدور الاسلامية الرحبة المملوءة حكمة ورحمة المفعمة مروءة وهمة ؟ تلك الصدور التى كانت تسمح لنواقيس الكنائس ان تدق بازاء مآذن المساجد بدون ان تحرك منهم ساكناً او تسبب غيظاً بينما كانت

مقاليد مقادير العالم بأسره بين أيدى المسلمين بلا منازع ولا شريك فانهم كانوا يستطيعون ولا شك ان يحجروا على حرية اديان مخالفيهم مثل ما فعلت الرومان وغلت فيه .

كان الجيش الاسلامي يدخل مكللاً بالفخار فى احشاء الممالك المخالفة له اعتقاداً فيجعل اكبر همه تطمين الناس على دينهم وتهدىء روعهم على حفظ معابدهم متعهداً لهم بحمايتهم والدفاع عن ذمارهم ويطلق لهم تمام الحرية فى اجراء كل طقوسهم الدينية وعوائدهم الملية : كل ذلك عملاً بتعاليم الاسلام وجرياً على سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

هل بعد هذا يستطيع مكابر ان ينكر على المسلمين احترامهم للنوع البشرى اكثر من كل امة سواهم او يجحد ان دينهم اعلى واسمى من ان يبنى على اختلاف المعتقدات الاباحة المطلقة فى سبيل الفتك والقسوة ؟ الاسلام لا يحلل الجور لمتبعيه حتى مع ألد اعدائهم فى ساحة الوغى وميدان الهيجاء قال تعالى : «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . »

الاسلام لا يأمر الرجل بقطيعة اهله لمخالفة دينه لدينهم بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف وعمل كل الطرق فى اداء واجباته نحوهم قال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهناً على وهن وفصاله فى عامين ان اشكر لى ولوالديك الىّ المصير . وان جاهداك على ان تشرك بى

ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من اناب الى ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون . »

روى عن اسماء بنت ابى بكر رضى الله عنهما قالت : اتتنى امي راغبة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسألته أأصلها قال نعم قال ابن عتيبة فانزل الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين . » الآية وارسل عمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة الى اخيه هدية وهو مشرك .

الاسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للاديان وهو مريد به التفريق بين الاهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الانسانى باكمله بل ان الرجل ليستطيع أن يكون مسلماً وهو فى عائلة كل افرادها مخالفون له فى المعتقد والمذهب ولا تحمله تلك المخالفة على عمل شيء ضدهم على الاطلاق بل يلزمه الدين بعمل واجباته بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم ما داموا مراعين نحوه شرائط المحبة وصدق النية .

الاسلام لا يكلفنا بجميل الخصال ومحاسن الخلال لنفعلها فيما بيننا فقط بل يكلفنا بها لنقوم بها نحو العالم أجمع طارحين على اختلاف الديانات غطاء كثيفاً وحجاباً غليظاً . قال عليه الصلاة والسلام : «خاب عبد وخسر لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر . » وقال : « تصدقوا على أهل الاديان كلها . » بهذه الاوامر الالهية عمل المسلمون ويعملون ولو اتهمهم بضد ذلك المضلون . كان عمر جالساً بين أصحابه فمر به رجل

من اهل الذمة يتسوّل فنظر الى مجالسيه وقال لهم انا لم ننصف الرجل أيصح أن نأخذ منه الجزية وهو شاب ونتركه يتسوّل وهو شيخ ؟ كلا، وأمر له براتب يصرف له من بيت مال المسلمين . فتدبر رحمك الله في هذه النفوس الكريمة والذرائع الرحبة واعجب كيف تمكن الاسلام بنور الله ان يؤثر على أفئدة اولئك العرب الذين كان يضرب المثل بجاهليتهم حتى جعلهم غرة في وجه المكارم وآية في عدم الحقد الديني في زمان كانت فيه هذه الاميال الشريفة مفقودة من بين النوع البشري بأسره .

اما من جهة حسن معاشرة المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الأخرى فمما لم يرد مثله في تاريخ البشر قاطبة . نعم بلغت منهم حسن المعاشرة لمخالفيهم في المعتقد مبلغاً لا تراه يحصل الآن ولا بين اخوين شقيقين ربيا في عائلة واحدة وتفرعا من نبعة مشتركة . قال مجاهد : « كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال ياغلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مراراً فقال له كم تقول هذا فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه . » قارن رحمك الله بين هذه المعاملة المدهشة وبين ما تسمعه في البلاد المتمدنة من الجمعيات السرية والجهرية التي تتألف يومياً ولا همّ لها الا اضطهاد اليهود واذلالهم . هل بعد ما بيناه في هذا الفصل يستطيع كلاب الفتنة وذئابها أن يسموا

المسلمين بتهمة الحقد الديني (التعصب) واضمار الشر لكل من ليس من ملتهم ؟ انا نسمع كل يوم فى بلاد المدنية بأمر نازلة من آثار الحقد الديني ما يجعلنا نخجل من سماعها . فهل سمعت يوماً انه قامت فى بلاد اسلامية جمعية جعلت همها معاكسة طائفة من الطوائف التى تدين بغير الاسلام ؟ اللهم لا .

نحن قبل أن نختم هذا الفصل نود ان نثبت للقارئ أن الحقد الديني الذي برهنا على تجرد الاسلام والمسلمين منه منذ ثلاثة عشر قرناً الى الآن كان ديدن سائر الامم وداءها الذى أعيا اطباءها وانه لم يتوصل الى تخفيفه — ولا أقول ملاشاته — الا منذ قرن تقريباً ولا نرى لذلك سبيلا أحسن من نقل ماقاله الفيلسوف الطائر الصيت جول سيمون فى كتابه حرية الاعتقاد قال : « ان حرية الاديان ليست ببعيدة العهد فان تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحقد الديني (التعصب) . هذا الحقد الديني الذي هو اقدم من الحرية يتصاعد الى أبعد عصر فى التاريخ . » ثم عدد آثار التعصب المذموم فى العالم كله من القرون الأولى الى الاعصار الوسطى ثم قال : « وأخيراً توصلت الروح الفلسفية الى تقرير حرية الاديان فى ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ ولكن لم تحقق هذه الامنية العادلة الا فى سنة ١٧٩١ وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم . ومع هذا كله فان الثورة الفرنساوية على ما كانت عليه من خلوها من حسن الادارة فى الاعمال لم تتمكن من تأسيس الحرية الدينية .

اما يحق لنا نحن بعد هذا كله ان نرفع صوتنا قائلين : ليحيي الاسلام دين المدنية والسلام ؟



واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهديهم

ان حفظ العهد واجب من اكبر الواجبات الاسلامية فلا يبيح الاسلام نقضه لاى سبب من الاسباب الا اذا كان المعاهدون هم البادئون بنقضه كما انه لا فرق لدينا فى حفظ العهد بين ان يكون معاهدونا من أهل الكتاب او من المشركين . قال الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود. » وقال الله تعالى بعد تعداده لصفات المؤمن : « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون. » هذا ومن يتصفح تاريخ الاسلام من أول نشأته للآن يتحقق ان المسلمين رجال يضرب بهم المثل فى حفظ العهد وصدق النية فى القصد وفى تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة تليق أن توضع نصب أعين قادة الامم فى طهارة الذمم وعلو الهمم. ومن يتصفح القرآن الكريم ير فيه من الاوامر لحفظ العهد والنهى عن نقضه ما يجعله يتأكد أن الشريعة المحمدية لا تضارعها شريعة أخرى من حيثية مطابقتها لقواعد العدالة وشدة يقظتها فى عدم تعدى حدودها . ألا ترى ان الدين فى أثناء تحريضه لعصابته الضعيفة بالثبات أمام عدوهم

الشديد البطش لم يغفل عن تذكير ابنائه — حتى فى هذه الساعات الشديدة المخاوف — بمعاهديهم لكيلا يلحقوا بهم أقل أذى ؟ قال الله تعالى : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين . »

أمامعاملة المسلمين لافراد الامم المعاهدة لهم فلاتفترق عن معاملتهم لاهل الكتاب الذين تقدم الكلام عليهم فى الفصل السابق وقد اوصى عليهم نبينا صلى الله عليه وسلم فقال : « امرنى ربي ان لا اظلم معاهداً ولا غيره . » وقال عليه الصلاة والسلام : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة . » * « من امن رجلاً على دمه فقتله فانا برىء من القاتل ولو كان المقتول كافراً . » هذا ومن يتصفح تاريخ الامم المتمدنة فى القرون السابقة يقشعر جلده من سلوكهم مع الامم الضعيفة فانهم ما كانوا يعرفون للحق قانوناً غير القوة ولا للفضيلة ناموساً غير القوة . فمن كان ينكده الحظ بأن يصير ضعيفاً كان يقع تحت ذل الاسر والعبودية ويقيد بالسلاسل والاغلال ليكون آلة لمواليه فى الحراثة او الصناعة او غير ذلك .

٤

واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربيهم

من المجمع عليه تاريخياً ان النبي صلى الله عليه وسلم قام بامر الدعوة الاسلامية بمفرده فى مكة المكرمة فتبعه افراد قليلون منهم نساء واطفال وشيوخ فاضطهد هو ومن اسلم معه اضطهاداً شديداً وعذبوا عذابا اليماً مما لا يمكن ان يحتمله الا من يرى الهلاك ايسر عليه من الارتداد عن حقيقته مثل ما حصل لخبيب رضى الله عنه حين أسر وعذب بالنار ولما عرضوه للقتل استأذن فى صلاة ركعتين فصلاها ثم قال لولا ان تظنوا ان مابى جزع لاطلتهما . اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم احداً ، ثم انبرى منشداً :

ولست ابالى حين اقتل مسلماً على اى جنب كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وان يشأ يبارك على اوصال شلو ممزع

هذا ماحصل لاحدهم وما كان يحصل لغيره اشد وانظع مما يطلب تفصيله من كتب التاريخ . فاستمرت هذه المصائب على هؤلاء المسلمين مدة ثلاث عشرة سنة . ثم اذن لهم بالهجرة الى الحبشة اولاً ثم الى المدينة ثانياً فنموا هناك واشتد ساعدهم فرمتهم العرب كلهم عن قوس فظلوا فى المدينة فى اشد الخوف والوجل حتى كانوا يقولون : « ترى

نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف الا من الله عز وجل. » فانزل الله تعالى عليهم هذه الآية تطميناً لهم و تسكيناً لروعهم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . » ثم لما تجمهرت عليهم القبائل وأتتهم متحمسة حاقدة بقصد ابادتهم واصطلامهم أذن الله لهم ان يدافعوا عن انفسهم ويثبتوا واعداً اياهم بالنصر والتمكين والفتح المبين فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . » فكان سيد الوجود عليه الصلاة والسلام ومن معه من النفر القليل يلاقون بصدورهم تلك الجيوش الهائلة والكتائب المتراكمة المتراكبة وهم مطمئنون متيقنون ان الله تعالى لا بد ان يحقق وعده لهم ويعدهم حيث قال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم . » * « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . » * « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . » * « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز . »

فاستعرت نيران الحروب بين طائفة المؤمنين القليلة العدد والعدد وبين سائر قبائل العرب مدة مديدة امتحن الله فى أثنائها قلوب عباده واختبر صبرهم وطاعتهم لاوامره وأمرهم على كل ما يمكن تصوره من المصائب حتى تنقت قلوبهم من كل شائبة وصار ايمانهم أنقى من النقاء وأصفى من الصفاء ثم مكن الله لهم فى الارض وجعل كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى فصاروا قادرين على ابادة أضدادهم عن بكرة أبيهم . ولكن كيف يتصور أن يحصل ذلك من دين الاسـلام دين المدنية والسلام ؟ حاشا . بل كان الله تعالى يأمرهم بمبرتهم والعدل معهم قال جل جلاله : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . »

ولما مكن الله للمؤمنين ووطد أمرهم وأراد أن يظفرهم على الذين ظلموهم فى أول نشأتهم واذاقوهم أنواع الآلام أمرهم أن لا يتبعوا دواعى الانتقام والتشفى لكيلا يخرجوا عن حدود العدل والحكمة وأراهم ان ذلك يعد عدواناً وظلماً فقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب . »

لم تأت هذه الاوامر بالنسبة للمقهورين فقط بل يجب مراعاة الاعتدال والشرف والرحمة حتى فى أثناء اشتعال نيران القتال قال تعالى: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين.»

ومن الاعتداء عند المسلمين سب اعدائهم ولعنهم . لما قتل المشركون عم النبي صلى الله عليه وسلم حمزة ومثلوا به واخرجوا كبده بكى عليه بكاء شديداً وحزن حزناً لا مزيد عليه ودعا عليهم فانزل الله تعالى : « ليس لك من الامر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون . » فكف عن الدعاء عليهم وقال لئن ظفرت بهم لامثلن باربعين منهم فانزل الله تعالى : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم بهولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » فقال عليه الصلاة والسلام « اصبر واحتسب . »

اما من جهة اسراء الحروب فان النبي صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بمراعاتهم واكرامهم وعدم اساءتهم فقال: « استوصوا بالاسارى خيراً . » فصار اصحابه ائتماراً بهذا الحديث يكرمون اسراهم لدرجة انهم كانوا يعطونهم خبزهم ليأكلوه ويكتفون بالتمر .

تدبر رحمك الله ما قدمناه لك في هذا الفصل تر التفاضل الواضح بين هذه العدالة الالهية وبين ما تقرأه من سيرة الرومان وغيرهم من الأمم التي كانت جاعلة نفسها طاعوناً مجتاحا للنوع البشري فهامت فيه قتلاً وسفكاً وتسخيراً واستعباداً . واعلم ان كل ما تراه من آثار العدالة في حروب هذا العصر ليس هو الا تقرباً لهذه العدالة الاسلامية التي هي نموذج لمنتهى ما يمكن حصوله في النوع البشرى . فلندع الجمعيات الساعية لتأييد السلم في العالم وابطال الحرب تعمل عملها العظيم وتجد فيه فان الاسلام لايهزأ بعملهاهذا بل ينشطها فيه حتى اذا تم لها ماتؤمله

بمساعدة الملوك والقياصرة ودعمته على دعائم الاخلاص وصدق الطوية مد كل مسلم اليها يده تالياً قوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم . »



نظرة

على الاسلام والمسلمين

قد بسطنا فى فصولنا المتقدمة كل اصول المدنية التى انبنى عليها كل ما نراه من الترقى فى العالم المتمدن وأقمنا الادلة الحسية على انها بعض قواعد الاسلام حتى يتخيل للرائى انها مستمدة منه ومأخوذة عنه . وبرهنا ضمن ذلك على انّ هذه الاسس الاسلامية لا يحتمل ان يعتريها التبديل او يعدو عليها التحويل لانها ملائمة لسنن الوجود ومطابقة لنواميس الحياة البشرية المثبتة بالحس مطابقة لا يمكن نكرانها بوجه من الوجوه وقلنا ان كل ترق يحصل فى العالم وكل خطوة تخطوها العقول فى سبيل الكمال ليس هو الا تقرباً الى الاسلام وانه سينتهى الامر يوماً ما باجماع كافة عقلاء البشر على اعتبار الاسلام ناموساً عاماً للسعادتين وضامناً لراحة الحياتين .

نعم الاسلام هو الدين العام الباقى بقاء الانام والقانون الذى تلمسته الفلاسفة الاعلام منذ الوف من الاعوام . اهتم عقلاء الامم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادى والنفس المعنوية ويوفق بين مطالبهما على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحقة بين امياهما بطريقة تمنع تسلط احدهما على الآخر . اهتموا بهذا الامر وتحسسوه من كل مظانه لعلمهم بان الانسان المركب من نفس وجسم اذا لم يراع تمام الاعتدال فى مطالب هذين الجوهرين وقع فى الافراط فى مطالب احدهما ومتى حصل له ذلك اخل بوظيفة الحياة ودفع نفسه فى تيار شديد القوى لا يسرع به الا ليصدمه صدمة تذهله عن نفسه فيصبح جائحة على بنى نوعه او عضواً مشلولاً فيهم . رأى هؤلاء العقلاء وليس بعد الحس دليل اسطع ولا بعد حوادث التاريخ برهان اقطع على ان كل المذاهب التى لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الامم التى تسود عليها الى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلاقل المزعجة آماداً مستطيلة حتى يسود احد أولئك القسمين على الآخر ومتى امتلك حريته المطلقة ولم يجد امامه مقاوماً يخفف من سيره تطرف واستهدف لكل مايستلزمه الافراط فى احد نوعى مطالب الانسان ولم يلبث ان تصيح به الطبيعة البشرية صيحة ترده مدبراً على عقبه فيصبح كأن لم يغن بالامس . ومن يتصفح تاريخ الامم ير بعينيه هذه الحقائق

ساطعة واضحة لا تعوزه الى بحث طويل .

أما نحن فأول من يوافق هؤلاء الحكماء على افكارهم من ضرورة تلمس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقاً عادلاً ويربط صلاح احدهما بصلاح الآخر كما هو شأنهما طبيعة . وقد اثبتنا في فصولنا المتقدمة ان النفس عرضة للامراض المختلفة والشفاء منها كما هي حالة الجسم سواء بسواء . ولما كان الرجل لا يستطيع ان يحمى جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة الا بتعلمه لقانون الصحة الجسمية فكذلك يجب ان يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسية ليستطيع ان يمنع نفسه من غوائل الامراض المعنوية القتالة . ولما كان هذان الجوهران المركبان للانسان موضوعين بطريقة بها يتأثر احدهما بمرض الآخر وجب ان يكون ذانك القانونان اللذان يحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين لكيلا يكون فى السير على أحدهما اضرار بالآخر . هذه الحقيقة اصبحت فى هذا القرن خصوصاً من البداهة التى لا يمترى فيها لان حالة الوجود كله شاهدة بصحتها . وهذه الحقيقة نفسها هى التى بعثت خاصة علماء اوروبا الى تأليف ديانة سموها الديانة الطبيعية أسسوا بنيانها على دعائم البداهة العامية والحقائق الفلسفية ونحن نستحسن ان نأتى فى هذه العجالة على اهم قواعدها مترجمة من كتاب (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو . قال : « قواعد الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها

وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى . والاعتقاد بوجود روح فى جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة فى هذا الجسم المادى أمداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها ان تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس ووضع الحرية الاخلاقية التى هي ينبوع واصل كل الحريات الاخرى تحت سيطرة الاعتدال الكلي . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقى وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم . والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترقي ولكن بدون فصل رقى النوع الانسانى فى مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة . »

لا شك ان كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الاسلامية وفى قواعد هذه الديانة الطبيعية يرى بعينيه ان الاسلام هو تلك الامنية التى تحسسها الفلاسفة وتلمسوها فى سائر ابحاثهم العلمية من قديم الزمان الى الآن ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التى يخطوها النوع البشرى بين كل هذه القلاقل الاجتماعية في سبيل الرقي والتدرج متقرباً كل يوم من قواعد الدين الاسلامي على غير علم من افراده ويتأكد ان الاسلام هو الغاية القصوى التى وضعها الخالق جل شأنه امام هـذا النوع ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها

ما تشاهد آثاره وافاعيله فى تاريخ الانسان مما هو مصداق لقول الله تعالى :
« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . »

من هنا أيضاً يدرك الممعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذى حصل فى الامة العربية فجعلها خير امة اخرجت للناس بعد ان كانت من الوحشية بمكان ليس دونه مكان .

فلنبحث فى حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعيـة التى انهكت قواهم منـذ قرون عديدة لنعلم اين الداء وما هو الدواء . نعم بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن بغاية الاسف رأينا اكثرهم أغضى كل الاغضاء عن ذات العلة واخذ يجهد نفسه فى مداواة الاعراض المرضية وهذا جهد لا يبلغ صاحبه أمنيته ما دام سبب المرض لم يزل ينتج افاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعى فى جسم الهيئة الاجتماعية الاسلامية . اما نحن فلا نريد ان نسلك هذا المسلك الذي لم ينتج فائدة ما بل نريد ان نثقب أغلفة ادواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصل بعون الله الى معرفة ذات العلة . ومتى عرفناها سهل علينا ولا شك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه فنقول :

لا يخفى على كل انسان ان مدنية المسلمين التى تكونت جرثومتها فى جزيرة العرب فتفرعت افنانها فى مدة قصيرة الامد على اكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولي غير الديانة الاسلامية . ويتمكن

كل انسان باستقراء التواريخ وعلوم العمران ان يستدل على ان هذه المدنية كانت اسرع المدنيات سيراً واكثرها بهجة واوسعها بقاعاً واعجبها منبتاً واقواها امتلاكاً لأزمة ذويها وتأثيراً على اذهان متبعيها وانها كانت جامعة لناموسى كل السعادات الاجتماعية وهما العلم والعمل .

هذه امور يهديها النظر المجرد فى تاريخ المسلمين فى مبدأ امرهم ولكننا الآن لو اجلنا نظرنا جولة صغيرة على جميع الامم الاسلامية فلا نرى الا عكس ما كان عليه آباؤنا الاول نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا القهقرى وآخذة فى محو أهميتنا شيئاً فشيئاً مع ان كل العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدعي الاسلام وتحافظ عليه محافظة الانسان على فؤاده . فهل ذلك مصداق لقول متطرفى فلاسفة هذا العصر من ان شأن الديانات عموماً تقييد الانسان عن الرقى ومنع النفوس عن التدرج فى معارج الكمال ؟ كلا . فان اقل نظرة فى حالة العرب فى جهالتهم ووحشيتهم قبل الاسلام ثم فى مدنيتهم وسرعة رقيهم بعده مما لم يعهد له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة . اذن هل هذا الاثر مصداق لقول معتدليهم من ان كل قاعدة مهما كانت ممدنة للامم ومرقية لشأنها فى عصر من العصور لم تخل من ان تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقى فى المستقبل لمضادتها لسنة الازمنة والمناسبات ؟ كلا . فانا درسنا أهم نواميس الاسلام فى كتابنا هذا درساً مدققاً فلم نره الا مطابقاً لقوانين الحياة البشرية ملائماً لقواعدها

ورأينا رأي العين انه لم يصنع للرقى حداً تقف النفوس عنده بل سن قواعد عامة وكسر كل قيد وضعه المتشرعون الاول جهلاً منهم بسنن الحياة المستقبلة واطلق كل خصائص النفس من اغلالها الاولى وترك اليها أعنتها ولكن بعد ان نقلها الى جادة الاعتدال والحكمة ونحن لا ننتظر ان يأتى زمان يقال فيه ان الاعتدال مذموم وان المحمود هو الافراط او التفريط . اذن ما هو السبب فى تأخر المسلمين حتى عن مساواة آبائهم فى عشر فضائلهم ؟ اما نحن فلا نجد السبب الا في هذا الامر المهم الا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه واليك التفصيل :

انا قد برهنا فى فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واحوال الجمعية الاسلامية الاولى ان غرض الاسلام الاول هو ترقية شأن الانسان مادياً وأدبياً على حسب ناموس الرقى العام الذى استدل عليه باستقراء احوال الانسان وتطوراته ، وانه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لأداء وظيفتها الا اشار اليها ونبه بالتعويل عليها وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلاً فى الاذهان ولا للريب مجالا فى الوجدان . ولكن بالقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الاعظم لا يفهم من الاسلام الا انه محض قواعد للعبادة ومجرد دعوات يقصد بها قضاء الحاجات فى الدنيا او نوال الدرجات العلى فى الآخرة ولا

يعلمون منه الا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج . واما ما فيه من آيات الحكمة ومعجزات الفضائل التي بعثت الامة العربية من جدث خمالتها الاولى الى ذروة جلالتها التالية فقد ضربوا عنها صفحاً مع انها هي لبـاب الدين وزبدة الاسلام والغرض الوحيد من انزاله وتشريعه .

جاء الاسلام موفقاً بين مطالب النفوس من المقاوم المعنوية والمنازل الاخلاقية وبين مطالب الجثمان من الاشياء المادية ليكون متبعه انساناً كاملاً عادلاً بين مطالب طبيعية موفقاً بين أميـال جوهرية فيقول الله : « وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك دنيـاه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من اخذ من هذه وهذه . » ولكن لوى سوادنا الاعظم الكشح عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا اهواء الامم السابقة فى فهم الدين وزعموا انه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم فى ذلك افكار ما أنزل الله بها من سلطان . يقول الله تعالى : «ولا تنس نصيبك من الدنيا . » ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « ان من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك . » فاسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان وزعموا من تلقاء انفسهم ان الدين هو عبارة عن التفرغ الكلي من علائق الدنيا

والانفراط المطلق من كل الاميال البدنية . فعلوا كل هذا ولم يعلموا انه السرطان الذى أباد الامم السابقة والطاعون الذي استأصل النحل المتقدمة . ولكن كيف يتأتى لهم ان يعلموا ذلك وهم منزوون فى محالهم جاعلين سداً منيعاً بينهم وبين هذه الآية : «افلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور.»

هذا الفهم السيء فى معنى الدين ادّانا الى تغيير معنى التقوى عما كانت عليه فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن اصحابه الكرام . فالتقى على حسب فهم دهمائنا الآن هو الرجل الذى خيم عليه الخمول والكسل وترك الجد والعمل ولم يترك له في الدنيا أقل أمل ، وكان على تمام الجهل باحوال الاواخر والأول . والذي ان مشى كان على مهل ، وان جلس كان في عنقه ميل ، وان دعى الى مهمة اورثها الخلل والزلل . هذه هي صفة التقى عند اكثرنا الآن وهو كما يراه كل متأمل فى احوال سلفنا الصالح مغاير تمام المغايرة لما كانوا عليه مناقض له على خط مستقيم . كيف لا وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وهم ائمة التقوى وامثلة الكمال الدينى كانوا كما يعلمه الخاص والعام ويرويه التاريخ للانام رجال الجد والعمل واهل الشيم والهمم وقادة العلاء والعظم لم يتركوا مظنة للفخار الا وردوها ولا راية للمجد الا رفعوها حتى اعلوا كلمة الحق على الاباطيل وقوضوا دعائم الجور

والاضاليل مما يدل مطالع سيرتهم على همة لو صادمت الجبال لسحقتها سحقاً أو لحظت الثريا لمحقتها محقاً . همة يقف امامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد همتهم بجانبها الا عجزاً واقتصارا . همة عرجت بنفوسهم الى سموات الرفعة عن دنايا الامور وسفاسف الاعمال وعلت بهم عن التدني للفجور وخسائس الاميال . همة كما ذادتهم عن الرتوع في مموّه الشهوات بعثتهم الى منازل الكمالات وكما ردتهم عن وهاد الزلات حثتهم الى تسنم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة فى صورة آدميين ونوراً ساطعاً ولو كان غلافه من طين : هذه هي التقوى التي رسمها الاسلام لمتبعيه وخطها لذويه لا ما نراه الآن من التقوى التي لو طبقت على الاسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحظور .

هذا الفهم السيء فى التقوى الذى أوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الاسلام جعلنا نقسم الناس الى قسمين : قسم سميناه أهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدوية أو بأبحاثهم الفكرية. وقسم سميناه اهل الاخرى وهم الذين تركوا الدنيا جانباً واوقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والمشى فى الطرقات خلف الطبول وتحت الاعلام . وانبنى على هذا التقسيم الوهمي الذي تأصلت جذوره فى العالم الاسلامى منذ قرون عديدة ان وقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوم التي عليها مدار السعادة المادية كما قصر أهل الآخرة أنفسهم على الاشتغال بالعلوم العبادية فصار القسم الاول بهذا الاعتبار جاهلا

للدين جهلاً يوقعه في الشكوك والشبهات وصار القسم الثانى جاهلاً للدنيا وامورها جهلاً اداه الى العماية عن سياسة أحواله المعاشية فوقع في العوز الذي أدّاه الى مدّ يده واراقة ماء محياه ولو كان ذلك تحت ستار رقيق وحاجز شفاف :

هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين الاسلامى من كل وجه ومعارض لأوامره بل ومعطل لأكثرها تعطيلاً .

قلنا فيما سبق ان الاسلام هو الدين العام الذى يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقاً لا محيص منه لمن أراد ان يستقيم على الجادة الحكيمة واثبتنا ذلك بالادلة القاطعة وقلنا ان الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الاسلام : « من تبتل فليس منا . » وانه جاء لصلاح الدين والدنيا معا « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة * وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم . » واكدنا بالأدلة الناطقة انه يحض على الكسب والعمل ويردع عن الخمول والكسل بعبارات أشد تأثيراً على الاذهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان وان الاعمال فى نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده فان ترك الانسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقاً موزوراً وان نوى صالحاً فاخطأ فيه كان مثاباً مأجوراً . قال عليه الصلاة والسلام : « انما الاعمال بالنيات . » قال علي رضى الله عنه

مامعناه : « من أخذ الدنيا بما فيها وأراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس بزاهد . »

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه فى فصولنا المتقدمة وأقمنا عليه الادلة التي لاتقبل النقض ونزيد هنا تحويل الانظار الى أحوال الجمعية الاسلامية الاولى فان افرادها لم يكونوا منقسمين الى قسمين قسم دنيوى وآخر اخروى . بل يروى لنا التاريخ انهم كانوا كلهم يداً واحدة فى العمل للدين والدنيا معاً فان ابا بكر وهو اول المسلمين كان تاجراً ولم يبطل مهنته الا حين تبوأ عرش الخلافة . وروى الامام احمد بن حنبل ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم . ولقى ابو قلابة رضى الله عنه صديقاً له فى المسجد فقال له : « لأن اراك تطلب معاشك خير من ان اراك فى زاوية المسجد . » وكان عمر رضى الله عنه يقول : « ما من موضع يأتينى الموت فيه احب الى من موطن اتسوق فيه لاهلى ابيع واشتري . » ذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للاخرى فكان يقول : « اعمل لدنياك كانك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كانك تموت غدا . » ويقول : « احرثوا فان الحرث مبارك . » ويقول : « اطلبوا الرزق فى خبايا الارض . » ويقول : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة . » ويقول : « العبادة عشرة اجزاء تسعة منها فى طلب الحلال . »

هذه هى نصوص الديانة الاسلامية واحوال جمعيتها الاولية فى عدم

التفريق بين الحاجيات الدينية والدنيوية وهذا هو عين السبب الذى حمى المسلمين فى مبدإ امرهم من الانقسام الى حزب دينى وحزب دنيوى وهو الامر الذى يوجد التخالف بين نزغات الامة وينشىء التناقض فى اغراضها فيتولد التضاغن والتباغض بين آحادها رغماً عن كل عوامل التأليف بينهم وبمرور الزمن يستحيل الامر الى حدوث تلاطم بين هذين القسمين تلاطماً يفضى بالجمعية الى الفوضى الفكرية ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت عرى الجامعة الاساسية التي تربط اجزاء الامة بعضهم ببعض وأخـذوا يشعرون بسريان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم فى مستقبلهم . فاذا انتهى حال الامة الى هذه الدرجة اخذ القسمان الديني والدنيوى يتبادلان القاء المسؤلية على بعضهما فينسب الدينيون ذلك الفساد الطارىء الى تمادى الكافة فى شهواتهم البهيمية ويعزوه الدنيويون الى تقصير اساتذة الدين عن الارشاد والقصور عن قمع نزغات ذوى الاهواء ويستمرون فى هذه الملاجة الفارغة بينما تكون جراثيم الفساد آخذة فى التفشى والانتشار جارفة الامة امامها الى مهاوى الدمار والبوار .

هذه هي حالة الامة الاسلامية فانها بعد ان طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الاولى فاوقعتها فيما وقعت فيه الامم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين اهلهما اخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقى التبعة على عاتقه ولعل جيلنا الحاضر هم اكثر الاجيـال شعوراً بضرورة

فضائل الاسلام لبناء ما تهدم من مجدنا واشدها تقريعاً لعلمائنا فى تقصيرهم عن الارشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر .
نعم اننا لنشعر بتهيء النفوس الى انتشاق نسمات الكمالات الاسلامية المنعشة لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الاخلاقى الذي قد عم وطم وساق النشأة الحديثة الى نقطة فقدت فيه الاحساس الا بالدنايا والادناس . نعم انا نرى بوادر ذلك الشعور لائحة الا اننا نستميح من قرائنا الحرية لاجل ان نقول ان ذلك الشعور لم يستكمل شرائطه الضرورية . فكانى بالناس يريدون ان تمطر السماء عليهم هذه الفضائل الاسلامية فتغمر قاصيهم ودانيهم وهم جالسون على اسرتهم منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الامل او يجعله ممكناً . بل كأنى بهم يرون ان تلك الفضائل لا يمكن تأتيها الا بواسطة رجال يلبسون شكلاً خاصاً من الالبسة او يقرأون كتباً مخصوصة فى العلوم .

كلا فانا ان ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا وكنا كالكسالى يودون لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود فى دورهم المنزوية . كلا . ان الفضائل الاسلامية التى كان يفهمها الاعرابى الخلوى فى مدة قصيرة لا تعسر مطلقاً على نشأة هذه الامة المتهذبة .

أسس الاسلام لا تحتاج لاجل ان تنفذ الى العقول الى جدال او الى تمهيد بل هي قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك تشعر النفس عند علمها بها بطمأنينة وراحة لا يستطاع التعبير عنها بوجه من الوجوه .

فان كان الرجل عالماً بحقائق الكون واراد ان يفسر سر تلك الطمأنينة التي سادت على نفسه فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها فما عليه الا ان يتدبر في اسرار الخلق وفي تكاليف الحياة البشرية وفي النواميس الناطقة السائدة على مجموع هذا الكون باسره وفي الغرض الذي يسعى اليه الانسان رغماً عنه ليرى بعينيه عياناً ان تلك الاسس الاسلامية على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها هي المحجة الوحيدة الى توصل الانسان الى سعادة مادته ومعناه وراحة دنياه واخراه . وانها هي نفس المحجة التي خلق الانسان مطبوعاً على تلمسها رغماً عنه والتي يراها الآن علماء العالم على بعد منهم ويسعون في تذليل كل الصعوبات للوصول اليها .

اذا كان هذا شأن اسس الاسلام من السهولة ومتانة القواعد فلماذا نتباكى على فقداننا تلك القواعد ونشتكي من قصور المرشدين عن ابانتها مع انها مبسوطة باصرح عبارة وأرق اشارة في القرآن الشريف وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كتبه سلفنا الصالح ؟ هل يظن المسلمون ان الله تعالى لم ينزل القرآن الا ليفهمه رجال مخصوصون او ليقرأ سرداً وبدون تعقل على رؤوس القبور وفي أوساط الطرقات او ليتلى بألحان الغناء في ليالي الافراح بين لغط النرجيلات ودخان السجارات ؟ ام هل يظنون ان احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح ان تتلى الا لقضاء الحوايج وحصول البركات

في المنازل ؟ ليعلم المسلمون ان كل هذه الامور تنافي الاسلام وتساعد على استجلاب سخط رب الاسلام .

ان القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة وأحاديث رسول الله وهي خلاصة قوانين العمران لم يأمر الله بتدوينها في الطروس ونشرها بين سائر طبقات الامة الا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها فانها ملاك السعادتين ومساك الحياتين وفي تاريخ المسلمين اكبر حجة على قولنا هذا . هانحن شعرنا بالحاجة الى كمالات الاسلام فما بالنا قعود عن أخذ حاجتنا منه كل على قدر استطاعته « ولا نكلف نفساً الا وسعها . »

ألسنا الآن كالكسالى يرون الغذاء امام اعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فينتظرون انصباب الطعام الى افواههم بدون مد ايديهم ؟

أليس من العار الشائن ان نصرف كل اوقاتنا في مطالعة روايات (اميل زولا) و (بول بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذى جمع بين دفتيه اسرار هذا الوجود باسره ؟

انا ندعى التمدن والتنور ونميل للتشبه بالمتمدنين في الجرى وراء اكتشاف مساتير الكون ونرمى القاعدين منا بالخمول والموت الفكرى ونحني رؤوسنا اعجاباً بنظريات (سبنسر) فى العمران و (جمبتا) و (تيبرس) في السياسة و (ريبوا) فى الفلسفة حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر اسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذى لو افنى علماء العالم كله اعمارهم فى تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا الى جزء منها . لعلنا نخجل من الاشتغال

بالامور الدينية تقليداً لغيرنا خشية من ان نتهم بالقصور العقلى . ان كان كذلك فهو تقليد اعمى كان يغنينا عنه اجالة نظرنا قليلاً في كتابنا السماوى لنرى ان الاسلام ليس بالدين الذى يأمر بالانزواء والاستكانة او بالتعصب مع الانغماس فى المهانة او باضناء الجسم فى العبادة مما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبلة بل هو الدين الذى يأمر بالكد والعمل ويحبب للانسان السؤدد وعلو الهمم ويهديه الى الفضائل والشيم، كل ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها الا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس فى رابعة النهار . فالمتكلم فى الاسلام والحالة هذه لايكون مردداً لافكار قامت بتكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقاً عن لسان الحكيم العليم بحكم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنظريات تصيح بالدلالة عليها ألسنة هذا الوجود الصامت . بقواعد لا يعتريها خلل ولايعتورها زلل . باسس عليها يقوم العمران ومنها يشرف الانسان على جنان العرفان . بانوار تنفذ الى صميم الفؤاد فتشرق فيه شمساً لا يخبو ضياؤها ولا تنطمس لآلئها تنير على المرء حزون هذه الحياة الكدرة وتفك له عقدها العسرة . تداوى جراح الافئدة مما اصابها من سهام الحوادث وتضمد قروحها من طعنات الكوارث وتطرد عن النفوس شياطين اوهامها وتطهرها من غاشيات احلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها تتجه الى سعادتها من بابها وتمزق دونها كثيف حجابها حتى تجعلها صالحة لان تطل على الملكوت الاعلى وتنال منه زبد العلم الاجلى .

ألا تنظر الى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجية قبل اشراق الاسلام عليهم ثم الى مصيرهم بعده ؟ ان الرجل منهم فى الجاهلية كان يذهب بابنته الى الفلاة وهي على ذراعه فيحفر لها حفرة وهي تنظر اليه وتحنو بفؤادها عليه فلا يجد فى نفسه نؤاداً يحن عليها وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب الى أهله فرحاً مسروراً كأنه لم يفعل الا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وضر الشنعة . تدبر بعيشك الى هذه القلوب القاسية والاحساسات العاتية ثم انظر اليهم بعد اعتناقهم للاسلام . ترى ماذا ؟ ترى رجالا نالوا من العواطف الكريمة ما لم ينله رجل ربى في مهد الحكمة وغذى بلبان الرحمة . ترى أمثلة للشهامة والفضيلة وأساطين للسجايا الجليلة أو الاخلاق الجميلة قاموا يعلمون فلاسفة الاخلاق بمثالهم ومقالهم قصور مادونوه فى اسفارهم . ترى أناساً نورهم يسعى بين أيديهم وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم يفضلون الملائكة تقوى ووقاراً ويفوقون الأكاسرة همة واقتداراً . انظر الى عمر بن الخطاب وهو الذى تعلم تاريخه في زمن الجاهلية والى ماذا آل أمره بعد ان اسلم ببضع وعشرين سنة : آل امره الى ادراك حكمة وسياسة وثبات أعزّ بها الاسلام والمسلمين وحفظ بها قوام ملكه العظيم مما يقصر عنه اكبر ملك تربى في مهاد التشريع ويكبو دونه اعظم فيلسوف ولد فى حجر الحكمة والسياسة . وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها

أو يمرض لاجلها اياماً عديدة . فكأنّ المتنبي عناه بهذا البيت :

قسا فالأسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع ان يذوبا

من اين حصل له هذا وبماذا ناله ؟ هل درس الاخلاق فى مدارسها الكلية أو علم العمران فى مجامعها العلمية أو السياسة على المنابر البرلمانية أو التشريع فى المدارس الحقوقية ؟ كلا . لا شيء من ذلك ولكنه كان يتلو القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيهما ويسأل غيره فيما كان يتعسر عليه منهما .

هذا رجل واحد قد ضربناه لك مثلا لترى بعينيك سلطة الدين الاسلامي فى احالة الطباع وسرعة تأثيره فى تغيير اتجاه النزعات وفى تنوير اذهان ابنائه ومتبعيه. فما بالنا ننبذ هذه الكنوز وراء ظهورنا ونظل نتساءل عن حكمة نتعلمها أو اخلاق نتصف بها ونقتنع بعد اخفاق المسعى بأن نلقى تبعة فسادنا على غيرنا ونهدر بشقاشق تسيء حالنا ونقبح مآلنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القصور والمدافن يتلوهما رجال لا خلاق لهم من العلم ؟ هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول : «واتخذوا القرآن عضين فوربك لنسئلنهم أجمعين.»

خلاصة القول ان دواء المسلمين الوحيد هو ان يفهموا معنى الاسلام ويدركوا ان غرضه الاول هو ترقية حالتى الانسان المادية والادبية معاً لارتباطهما ببعضهما ارتباطاً كلياً لاجل ان تستطيع النفس ان تعرج الى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجاً سريعاً . وان يفقهوا

ان لفظة عبادة في الاسلام لا تعنى فقط العبادة الجسمية من ركوع وسجود بل ان كل ما يفعله الانسان مريداً به أمراً ينبنى عليه اصلاح لذاته او لعائلته او لجمعيته او لبنى نوعه او للكائنات كلها هو فى نظر الاسلام من احسن انواع العبادة واشرف اشكال الطاعة لله عز وجل : « ان المؤمن ليؤجر فى كل شيء حتى فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته * والشاة ان رحمتها يرحمك الله . » حديثان شريفان . وان يدركوا ان الاسلام لا يعارض التقدم فى الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب اليها ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها . هذه الاسس الاسلامية تنطق بتأييدها مئات من الآيات القرآنية والوف من الاحاديث النبوية واحوال الجمعية الاسلامية الاولية حتى ان المرشد المتنور ليستطيع ان ينقشها فى مخيلة تلميذه فى درس واحد .

هذا هو دواء المسلمين ولكن دون وصوله للعامة المحرومين من المطالعة والاطلاع عقبات لا يزحزحها عن مواضعها الا كرور الزمان عليها وحصول مناسبات مساعدة لنشرها .

وانا نختتم مقالنا هذا برفع اكف الرجاء الى الله جل وعز أن يهدينا الى صراطه المستقيم ومنهاجه القويم وان يوفقنا للسير على هدى رسوله الكريم وان يحسن خواتمنا اجمعين آمين . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومتبعيه وسلم تسليماً كثيراً .

